كِتَاب الشَّرح والتَّبيين

للإمَام محَمّد بن القاسم بن إبرَاهيم عليه السَّلام

مُنتزع من مَجْموع كتبه ورسَائِله

تحقِيق :عبد الكريم أحمد جدبان

منشورات مكتبة التراث الإسلامي تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الشرح والتبيين

الشرح والتبيين

في أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العدل الكريم ، الرحمن الرحيم ، الناظر لعباده ، المحسن إلى جميع خلقه ، بما ابتدأهم به من نعمه ، وعاد عليهم به من فضله ، وابتدأهم بالإحسان لا ليد سلفت منهم ، وجاد عليهم بالامتنان بلا طاعة تقدمت من فعلهم ، ولكن بفضل من رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم ، أسأل الله التوفيق والتسديد ، والخيرة والتأييد.

سأل محمدَ بن القاسم بن إبراهيم بنوه ، وبعضُ أهل مودة أبيه رضي الله عنه ، أن يبينهم مما كان يقول به أبوه رحمة الله عليه ويدين به جُملاً ، وأن يذكر لهم ما كان أبوه القاسم يراه في دين الله فرضا ثابتا ، وأمرا لازماً ، وأصلا لا يسع أحدا من المؤمنين جهله ، ولا يجوز لأحد من أهل الإيمان بالله خلافه.

فقال محمد بن القاسم: فيما كان أبوه القاسم بن إبراهيم يراه في دين الله فرضا لازما ، مَن جهله و لم يدِن به كان ظالما ، وعند الله سبحانه كافرا لنعمه آثما ، فمن ذلك ما ذكر محمد عن أبيه مجملاً في أصول الدين ، وما كان يعتقده فقد بينه محمد وأوضحه ، ونشره وشرحه ، والشرح والتبيين من قوله ، عن أبيه ، وقد نسبه إليه ، وما كان فيه من تبيين وإيضاح ، فمن لفظ محمد وإيضاحه ونفسه لقد بينه.

فقال: يا بني - أرشدني الله وإياكم ، وهداني نحو الصواب وهداكم - أن أكتب لكم أصولا مما كان عليه أبي رضي الله عنه في الدين ، وما اختياره عند

اختلاف المختلفين ، وجهل جُهال العامة المتحيرين ، وتحريف أهل التأويل الضالين ، [1] يا بني فما فهموا وأنتم يا معاشر شيعتنا - فافهموا رحمكم الله - واعلموا أنا نحتج ونتكلم عن كتاب الله المبين ، وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القول الثابت المستبين ، أشرحه وأوضحه لكم بالأمر المبين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) هنا سقط أشار إليه في المخطوط.

[التوحيد]

فأول ذلك توحيد الله سبحانه وتنزيهه ، وتمجيده وتقديسه ، جـل جلالـه وإعظامه ، عن أن يُمثل أو يُشبه بأحد من خلقه وعباده ، في جميـع أقوالـه وصفاته ، ولذلك قال الله عز وجل في كتابه ، وفيما وصف به نفسه متعرفـا إلى عبـاده ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ [الإخلاص:١-٤]. والأحد فهو: الواحد الخالق في الوحدانية ، الذي لا يوصف الله خلقه كلها بصفة ، وذلك فهـو الـذي يعتقده في دينهم أهل الإيمان به والمعرفة ، لا يُوصف سبحانه بطول ولا عرض ، ولا يتمثل تعالى بشيء مما خلـق في السـموات والأرض ، لأنـه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

قال محمد بن القاسم رضي الله عنه: ولا نقول في عجز درك الأبصار له ، وامتناعها من رؤيته وإدراكه ، بما قالت به الحشوية الجهلة العوام ، إن ذلـك لحجاب أو حجب من النور تحول بينهم وبين معاينته وستور ، بل عنا تبـارك وتعالى عن بلغة الأبصار من إدراكه ومعاينته ، وذلك أن العجـز — عجـز المخلوقين — هو بعينه الحجاب عن درك الأبصار ، لأن كل مخلوق من بريتـه من أهل أرضه وأهل سماواته ، عن درك الأبصار له مـن أهـل السـموات والأرضين ، بل هو رب العالمين ، الذي عجز عن دركـه أبصـار مَـن في السماوات والأرض ، لأنه سبحانه لا يحد ولا يوصف بشيء مـن صـفات المخلوقين ، ولا ينعت ولا يحد سبحانه بسمة من سمات المخلوقين ، ولا حد ، لأن ما أدركت الأبصار ، كان متناهيا محدودا له أقطار ، وما كان متناهيـا

محدودا فلن يكون محدودا إلا وقد أحاط به غيره بحد ، فيكون حينئذ بصفة المخلوقين موصوفا ، والله تبارك وتعالى غير خلقه وصفا ، فهم غير صفته ، لأنه سبحانه لا مثيل له ولا نظير ، وكذلك قال في كتابه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، فلن يكون الشيء محدودا ، إذا كان الحآد له ثابتا معه بحد موجودا.

وتأويل ﴿ سَمِيعٌ ﴾ مدرك لجميع مختلف الأصوات ، بغير ما أدرك به المخلوقون من الآلات ، والآذان المخروقة المصورة التي جعلت لدرك إلى الأصوات أدوات.

﴿ بَصِيرٌ ﴾ - تعالى وتقدس - بجميع الأشخاص ، مدرك لأقدارها ، وهيئاتها وألوانها ، وطولها وعرضها ، وجميع نواحيها ، وظاهرها وباطنها ، بغير آلة من حدقة ذات طرف لائحة ، لأن حدق العيون إنما تدرك ما كانت محاذية مواجهة ، وهذه صفة المخلوقين العجزة ، ومما يتعالى الله عنه رب القدرة والعزة.

وإنما عنى بقوله تبارك وتعالى: ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١]، الدلالة لخلقه على دركهم ، وعلمه لأصواتهم التي إنما يعقلون دركها عندهم بالأسماع ، وأنه مدرك عالم بجميع أشخاصهم وهيئاتهم ، وصورهم وألوانهم وصفاتهم وحركاتهم ، التي إنما يعقلون دركها بالعيون والأبصار ، إذ إدراك المخلوقين للأصوات والأشخاص بالأسماع والعيون التي ربما كلّت وتحيَّرت وأخطأت ، وأدركته ظاهرا دون باطن وقصرت ، ودرك الله تبارك وتعالى لهذا كله درك واحد محيط بما ظهر وبطن ، وبما بعد وقرب ، وهو درك علمه الذي لا يفوته من المدركات شيء ، قل ولا كثر ، ولا دقيق ولا جليل ، ولا صغير من ذلك ولا كبير ، ولا خفي [ولا] مستبين.

وأنى وكيف يدرك علم صفات الأشياء قبل كونها؟! وجميع ما هي عليه بعد تكوينها ، حتى يحيط علمه بظاهرها وباطنها؟! إلا الله وحده الذي رؤيته وسمعه بغير آلة محدودة ، من عين ذات طرف لا حظة أو خرق في أذن من الآذان واهية ، جل عن هذا وتقدس وعلا من ليس كمثله شيء!! ولا يجد أحد له مثيلا ، بل دركه لكل مدرك من الأصوات والأشخاص هو علمه ، وعلمه فهو صفة من أكرم صفاته ، وهو قوته الشريفة العظمى ، التي بها ظهر جميع حكمته ، وهي القوة والوحدانية المنفردة التي تقع على المختلفات وليست هي بمختلفة ، العلم الذي يدرك به المختلف من الأشياء ، وبه ظهرت حكمته في السموات العلى ، والأرضين السفلى ، فلم يزل سبحانه بالقوة التامة عالما قويا ، ولم يظهر بتلك القوة الأشياء قديما ، فيكون الخلق معه متقدما أزليا ، بل كان على خلق ما خلق قبل أن يخلقه قويا ، كاملة قوته ، عالما كيف يكون خلقه إذا خلق ، تاما علمه.

وكذلك لم يزل الجود له صفة بقوته عليه ، ورضاه إياه ، وإن كان من يجود عليه غير موجود ، وكذلك كان رحيما ولا مرحوم بالقوة التي رحم بها المرحوم إذ [(١)] خلقه ، ورضاه الرحمة ، فإنها عنده محمودة من فعله له مدحه ، إذ لا يجوز ولا يصح أن يقول: الله سبحانه لم يزل لهذه المخلوقات فاعلا قبل فعلها ، ولكن يقال: إن الله كان خالقا بالقوة وجود الرضا بالجود ، وأنه سيخلق من يجود عليه بالقوة إذا أراد أن يخلقه.

وعالم وإن لم يكن معلوم بالقوة التي قد علم بها المعلومات إذا كوّنها كيف يكون ، رحيم لرضاه بالرحمة ، وإنها من صفته ، وإن لم يكن مرحوم ، وحكيم بقوته التامة التي هو قادر بها على الحكمة والمحكمات قبل خلقه لها

---

(١) في المخطوط: إذا. وما أثبت اجتهاد.

بالتكوين ، وإن أخر خلقه المحكمات المتقنات بحكمته قبل خلقها ، كيف يكون خلقه لها إذا صنعها.

وسأضرب لكم في ذلك مثلا ، ألا تعلمون أن العالم بالبناء القوي عليه بناءٌ وإن لم يبن ، والبحَّار بحارٌ إذا كان عالما بالبحارة وإن لم يبحر ، والطبيب طبيب إذا كان عالما بالطب والدواء والعلاج وإن لم يتطبب ويداوِ ، وكذلك الفارس فارس [١] إذا كان عالما بالفروسية والركوب ، وكذلك العالم بما يكون من الأمر عالم [٢] وإن لم يكن المعلوم ، وإذا كان هذا في المجاز والمعقول مفهوما في عجزه الخلق المحدثين ، فكيف لا يجوز الذي له القدرة الكاملة والقوة القاهرة؟! وإن لم يكن الخلق موجودين ، فيسمى سبحانه بهذه الأسماء ، إذ هي واجبة له قبل وجود الأشياء ، إذ هو القادر ذو القوة المتين ، ثم خلق الأشياء فأظهرها وأوجدها بقوته عليها حين أراد خلقها ، فلما نشأ البرايا وصنعها ظهرت رحمته في المرحوم ، وبدت حكمته ولطيف تدبيره وإتقان تقديره ، في المصنوع ، وبدا جوده ظاهرا حين خلق مَن أعطاه وجاد عليه ، ونعمه على من أعطاه إياها ، وأحسن إليه بعطايا نعمه التي لا تحصى ، ومواهبه الجزيلة التي لا تنقطع ولا تتقصى ، وفضله الذي عم به من [في] الأرض والسماء ، فأظهر من ذلك ما لا يحصى عدده ، ولا ينقطع أبدا مدده ، فهو سبحانه الأول قبل الأوائل المذكورة ، وهو العالم التام علمه بلا نقص شيء من تَذَكُّر ولا فكرة ، لأن كل عالم سواه إنما عَلِمَ بعد جهل وتعلُّم ، وفكرة تخيلها وتوهُّم ، وعلم الله سبحانه فهو علم تام لا تتوهم شيئا ثانيا سوى الله ، فالله عز وجل هو العالم قبل كل معلوم ، والراحم قبل كل مرحوم

---

(١) في المخطوط: فارسا. وما أثبت اجتهاد.

(٢) في المخطوط: عالما. وما أثبت اجتهاد.

، والحكيم لم يزل قبل فعله للمتقن المصنوع ، فليس هكذا غيره تبارك وتعالى أحد ، ولذلك ليس مثله ولا له كفؤ كما قال سبحانه ولا ند ، وهو الصمد المصمود ، والصمد في اللسان العربي فهو المقصود في المهمات المعمود ، وذلك في لغة العرب وأشعارها مفهوم موجود ، قال شاعر بني أسد في الجاهلية ، وهو يذكر [١] سيدا لهم فجعتهم به المنية:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقد ذكر بعض [٢] جهلة الشيعة أن بعض أهل البيت كان يفسر الصمد: الملتئم الذي لا جوف له ، وهذا كذب الرواية ، لا يتوهم أن عالما من آل محمد صلى الله عليه وعلى آل بيته وسلم يقوله ، ولا يثبت إلى من ذكروا مثله.

فهذه جملة من التوحيد كان يقول بها أبي رحمه الله ، لا يجوز جهلها في معرفة الله سبحانه ، إلا أنه كان يكتفي المتعلم الجاهل بمختصر مما ذكرنا ، يعتقده ولا يسعه إغفاله ولا أن يجهله.

فإذا قال قائل: بل بجملة قريبٌ مأخذها وفهمها ، كانت كافية له فيما بينه وبين ربه جل ذكره ، حتى يقرّ بها قولا ، ويعتقدها في ضمير قلبه فهماً ، فيعلم أن الله سبحانه واحد أحد فرد ، لا شبه [له] ولا نظير من كل ما خلق وفطر ، من ملك مكرم ، ولا جآن ولا إنس من بني آدم ، وأنه خلاف كل نور من الأنور ، لأنه أكرم وأعظم من كل نور ، وأنه فوق المعظمات من المخلوقات ، لا مثل له ولا شبيه - لكرمه وعظمته - في الأرض ولا في السماوات ، كلما

---

(١) في المخطوط: ند. وما أثبت اجتهاد.

(٢) يقصد هشام بن الحكم.

الله [١] سبحانه من صفاته ، فهي خلاف ما عليه صفات أهل السماء والأرض من جميع برياته ، فهذه جملة في توحيد الله كافية ، ومقالة منيرة شافية.

(١) العبارة غير واضحة. لعل بها سقطا أو تصحيفا.

[العـــدل]

ثم يجب على العبد المؤمن بعد هذا فيما بينه وبين ربـــه أن لا ينســب إلى الله سبحانه ما قد تبرأ إليه في جميع كتبه ، لأن الله تبارك وتعالى قـــال في محكــم كتابه ، وما تعرَّف به من الإحسان والعدل والرحمة إلى عبـــاده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [يونس:٤٤]. وقـــال تبارك وتعالى في كتابه الناطق ، وما أخبر به عن نفسه من الخبر الصادق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٤٠] ، هو قال تبارك وتعالى في المحكم من قولـــه ، مـــا لا تبديل له ولا يشك فيه من آمن به مـــن الســـماوات والأرض: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[فصلت:٤٦].وقال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:١٠٨]. وقال تعالى في قوله المحكم ، وتتره [١] مـــن الجـــور والظلـــم: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [الأنفال:٥١]. وقال ســبحانه وهـــو يذكر من عذب بذنبـــه مـــن المـــدينين: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخـــرف:٧٦]. وقال تعالى متعرفا بعدله ، ورحمته وفضله ، إلى خلقه أجمعين ، فيما نزل على رسوله من وحي كتابه المبين: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:١٠٨].

---

(١) في المخطوط: وتتريه. لعلها مصحفة ، وما أثبت اجتهاد.

فمعرفة الله سبحانه بما هو عليه ولا يزال معروفا به في الدنيا والآخرة من الرأفة لعباده والرحمة ، وما لم يزل عليه ولا يزال من العدل والإحسان والحكمة ، وما نزل الله سبحانه من صفاته بذلك في مثل ما ذكرنا من آياته المحكمة ، ينفي عن الله سبحانه كل جور ، قليل أو كثير ، وتنزيهه تعالى من كل مظلمة. وكيف يجور أو يظلم أحكم الحاكمين؟! وقد تبرأ من ذلك في جميع كتبه التي أنزلها على المرسلين ، كيف وهو المعروف عند كل خلقه بالحلم والعفو الذي فاق عفوه وحلمه كل عفو وحلم كل حليم؟! كيف سبحانه وقد جازت رحمته ورأفته رأفة الآباء والأمهات ورحمة كل رحيم؟! وكيف يتوهم مَن عقل أن الله تبارك وتعالى في حكمته وعدله ، وما تعرَّف به إلى عباده من رحمته ورأفته وفضله ، يدعو عباده إلى الإيمان به والطاعة له ، ثم يحول بينهم وبين ما دعاهم إليه ، بأن يقضي ويقدر على من دعاه إلى الطاعة المعاصي والمنكرات ، وقضاؤه وقدره فعلٌ منه بإرادة واختيار ، لأن من قدَّر وقضى ما كره وما عنه نهى وهو لا يريده ، فلن يكون ذلك منه إلا على الإكراه من غيره له والاضطرار ، والله تبارك وتعالى فهو الحكيم القادر ، الذي لا يفعل أبدا فيما بقي من الدهور ولا فيما مضى إلا ما يريده ، والله سبحانه لا يريد أبدا إلا ما يرضى ويحب ، ولا يحب أبدا ولا يرضى ما سخطه ونهى عنه ، ولا يقدِّر شيئا من المنكر على عباده ، بل منعهم بالنهي عنه.

كيف وقد نزَّل كتبه؟! وبعث إلى خلقه رسله؟! يأمر بالطاعة والبر والإيمان ، وينهى عباده كلهم عن الكبائر والفواحش والعصيان ، ثم يقدِّر ويقضي على عباده ما نهاهم عنه من الفجور والفحشاء والغي ، إن هذا من قول مَن قال به لافتراء على الله سبحانه عظيم ، لا يتوهمه من يعرف الله سبحانه بعدله وكرمه وجلاله ، ورأفته وإحسانه وعظمته ، وإن كل جور عنده مسخوط ذميم.

فنهى عما سخط من الفواحش والظلم عبيده ، وباينهم [١] في النهي عن ذلك إن لم ينتهوا زجره ووعيده ، ثم يقدر عليهم ما نهاهم عنه ويقضيه ، كما زعم الغواة الكفرة فيه ، لقد قال من قال بهذا في الله الكريم ، ذي الحكمة والعدل الرحيم ، قولا فاحشا إدًّا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال من الكذب فيه على الله سبحانه هدا ، إذ نسبوا إلى العدل الـــذي لا يجور ولا يظلم جورا وظلما ، بأنه قدر المنكر والفواحش وقضاها على عباده بالإكراه لهم على خلاف الذي نهاهم عنه حتماً.

فأنبياء الله عليهم السلام الصادقون على الله جل ذكره ، ينهون عن الفواحش والذنوب ، ويذكرون [أن] الله سبحانه نهى عنها ، وحكم بتركها ، وسخطها حكما ، ثم قدرها وقضاها وأرادها بتقديره لها ، وشابها [٢] في إبليس اللعـــين يدعو إلى ما قدر بزعمهم وقضاه ، وجاء محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم ومن قبله من أنبياء الله سبحانه ينهون عما قدر الله وقضى ، فأي قول أقبح؟! وافتراء على الله جل ثناؤه لمن قال بهذا القول وأشنع وأقبح؟! من قول من قال ووهم ، أن الله عز وجل قدّر ما كره وقضاه ، ثم نهى عمـــا قـــدره وقضاه ، وأخبر أنه يعذب عليه مَن فعله وأتاه ، وقد علِم كل مَن فَهِم وعَقَل أن الله عز وجل لا يقضي ولا يقدر على عبده ما نهاه عنه أن يفعـــل؟! فيـــا ويلهم فما أبين وأفحش جهلهم!! وعماهم وخبلهم!! وجدوا في شيء مـــن كتاب الله عز وجل أو في خبر يصح عن أنبيـــاء الله علـــيهم الســـلام أن الله سبحانه قدر وقضى ما نهى العباد عنه ، أو رضي لهم ما منعهم منه

---

(١) الكلمة مهملة وغير واضحة.

(٢) الكلمة مهملة وغير واضحة.

لقد أساء على الله من قال بهذا القول العمي الغوي المتناقض ، ونسبوا إلى الله سبحانه خلاف ما تعرّف به إلى خلقه من الأسماء الحسنى ، إذ زعموا أنه نهى عن المنكرات ، والفواحش من السيئات ، التي منها الشرك به والافتراء عليه ، والتكذيب لرسله ، وقتل النفس التي حرم الله سبحانه ، من أنبيائه والمؤمنين من عباده ، والربا والسرقة ، وعبادة الأصنام ، وكل فسق وفاحشة ، وهم يقرون بألسنتهم أن الله جل ثناؤه لم يشأ شيئا من هذه الكبائر و لم يرضها ، ثم ينقضون قولهم فيزعمون أن الله عز وجل قدر هذه الفواحش على مَن فعلها وقضاها ، وأنه شاءها بعد نهيه عنها وارتضاها ، جل الله وتقدس وعز وعلا ، عما قالوا به من هذا الكذب والافتراء ، فهذا الأصل من إثبات عدل الله عز وجل ونفي الجور عنه ، ما يلزم كل مَن عرف الله سبحانه إثباته والمعرفة به لا بد له منه.

وكان أبي رحمة الله عليه يقول: إن كل كبيرة وعد الله سبحانه العقاب عبده فيها ، فإن عقاب الله له بها ثابت أبدا عليه ، وإن من دخل النار غير خارج منها وإنه مخلد فيها ، غير غائب عنها ، لقول الله عز وجل في كتابه ، وخبره عن ثبات العصاة الكفرة في عقابه عليهم: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ ﴾ [النساء:٥٧] [١] ، وقال: ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ۝٤٨ ﴾ [الحجر:٤٨] ، ﴿ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ ﴾ [الانفطار:١٦] ، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۝٧٥ ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٥].

وفي وعيد الله سبحانه هذا لهم ما يدل على تخليد الله لهم في العذاب ، وأنه لا يزول عنهم ما صاروا إليه من العقاب ، فنستجير بالله من عقابه ، ونعوذ

(١) هذه الآية ذكرت في القرءان أحد عشرة مرة.

برحمته ورأفته من عذابه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم.

[مذهب القاسم في الكبائر]

وكان يقول رضي الله عنه: إن الله لا يغفر الكبائر التي وعد عليها النار إلا للتائبين ، وإن وعد الله جل ثناؤه ووعيده واجب للأبرار والمذنبين ، وإن من مات على كبيرة من الكبائر غير تائب منها لم يغفر الله سبحانه له ، ولم ينج من عذاب الله وعقابه عليها ، ومن ركب كل كبيرة من الكبائر ثم تاب منها ، وأقلع ونزع عنها ، غفر الله له وعفى عنه ، يقول الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى:٢٥]. وقوله سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣].

ثم أخبر عما يغفر الذنوب به من التوبة ، وأنه إنما يغفرها بالترك لها والإنابة ، فقال سبحانه في هذه الصفة بعينها: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر:٥٤-٥٨].

[مذهب القاسم في الهجرة]

وكان أبي رضي الله عنه يرى فرضا واجباً على المؤمنين أن يكونوا بالمعروف آمرين ، وعن المنكر ناهيين وله منكرين ، فإن لم يقووا على أهل المنكر ، ولم يجدوا عليهم أعوانا يردوهم ويمنعوهم عن معصية الله سبحانه ، وما هم عليه لأمر الله من المعاندة ، كان أقل ما يجب عليهم لله عز وجل في الفجرة والفساق الاعتزال لهم بالهجرة والمباعدة ، وأن يتخذوا دارا غير دارهم ، وأن يتفرقوا إلى الله عز وجل بترك جوارهم ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه مخبرا عن ملائكته ، الذين يحضرون الميت فيذمونه وقد كان مستضعفا ، ضعيفا عن الإنكار على أهل معصيته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧]. عنى تبارك وتعالى بظلمهم أنفسهم مقامهم [١] مع أهل الجور والمنكر في دارهم ومحلهم ، قال الله سبحانه مخبرا عن أولئك ومقامهم مع العصاة والفجار ورضاهم بمجاورتهم ، إذ تقول لهم ملائكة الله عليهم السلام عند قبضهم لأرواحهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ - يعنون ماذا فعلتم من إنكار المنكر على من جاورتهم [٢] من أهله؟ - قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:٩٧]. فعلمت ملائكة الله أنهم قد صدقوا في الخبر من ضعفهم ، واحتجت الملائكة عليهم لله إذ ضعفوا عن مجاهرتهم ، و ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧]. يقولون: فتنحوا عن أهل المنكر والمعاصي في أرض الله الواسعة ولا تجاوروهم ، قال الله سبحانه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ

(١) في المخطوط: مع مقامهم. ولعلها زيادة سهو.

(٢) في المخطوط: حاور بهم. كلمة مهملة ، ولعل الصواب ما أثبت.

جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء:٩٧]. يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء:٩٨]. يعني: فإن لم يمكنه النقلة من ضعفة الرجال والنساء والولدان لفقرهم وضعفهم ، ثم قال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء:٩٩].

ثم قال سبحانه مؤكدا على من أمكنه النقلة والهجرة ، والانتقال عن أهل المعصية ، مرغبا لهم في المهاجرة عن مجاورة الفساق الأئمة: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ ﴾ [النساء:١٠٠] ، يعني بالمراغم: السعة في الأرض ، وإمكان المحال التي تبعد عنهم ، وإمكان المراغمة وهي الاعتزال لجوار الأئمة والمغايظة [١] ، ففي ذلك الرضى لله سبحانه وإن كرهه الفجرة وأرغمهم وغمهم ، فهذا أصل كان عنده أيضا من الأصول ، كان يراه [٢] فرضا لازما على كل مؤمن يضعف عن إنكار منكر العاصين ، أن يكون بالنقلة عنهم والتباعد منهم لهم من المهاجرين ، ولذلك ما كان لَزِمَ الجبال وصبر على الوحدة ، وشظف المعيشة ، وترك المدن ومرافقها ، وتقرَّب إلى الله رب العالمين حتى توفي رضي الله عنه في رأس جبل من الجبال ، ولم يزل صابرا فيه ومنه على ضيق المعاش ، وشدة الحال ، فرحمة الله عليه وبركاته ، وقَبِلَ الله منه ما تقرب به إليه من اعتزاله إليه.

---

(١) كذا في المخطوط.

(٢) في المخطوط: يرضاه. ولعل الصواب ما أثبت.

وكان أبي رحمة الله عليه يرى ولاية كل مؤمن من الأولين والآخرين فرضا واجبا ، ويرى البراءة من العصاة لله سبحانه الماضين منهم والمتأخرين حتما من الله عز وجل مفروضا لازما ، لقول الله سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة:٢٢] ، يخبر عن علمه الذي هو ثابت كتابا لا يزول بما هم عليه في إيمانهم وصدقهم من الإيقان ، إذ لم يتولوا في إيمانهم آبائهم وأبناءهم وإخوانهم على محادة الله عز وجل ومعصيته ، وإنهم على أصدق الصدق وأيقن الإيقان.

ولذلك ما ذكر الله سبحانه إيمان خليله ورسولهإبراهيم ، خليل الله عليه أزكى الصلوات وأفضل التسليم ، حين ذكر استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو يرجو رجوع أبيه إلى طاعة الله عز وجل ومرضاته ، فوعده الاستغفار له إذا تاب مما كان عليه من شركه بالله ومعصيته ، فلما أبى ما دعاه إليه ابنه إبراهيم صلى الله عليه من التوبة عن عظيم خطيئته ، وبان له ما كان عليه أبوه من مشاقة الله جل ذكره وعصيانه وعداوته ، بعد استغفاره له ورجائه لرجوعه عن الشرك وإنابته ، تبرأ منه وخرج من قلبه ما كان عليه من رقته عليه ورحمته ، وأثنى الله سبحانه على إبراهيم عليه السلام ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤]،فأثنى الله عز وجل على تحلُّمه وصبره ، في طاعته له سبحانه وشكره ، وأنه أواه ، والأواه المتأوه ، والمتأوه الرفيق الراحم الكريم ، فهو صلى الله عليه مع تأوهه ورحمته تبرأ من أبيه ، إذ بان له مشاقته لله ، وما كان عليه من عداوته.

[المشبهة]

ولقد ضل قوم ممن ينتحل الإسلام من المشبهة الملحدين ، الذين شبهوا الله سبحانه بالمخلوقين ، وزعموا - لعنهم الله - أنه على صورة الإنسان ، وأنه تعالى جسم له يدان ورجلان وعينان ، وبدن ذو حدود وأركان ، جل وتعالى وتقدس عن أن يشبه شيئا من عبيده وخلق لا ملكا ولا بشرا ولا جانا ، واعتلوا بآية من متشابهات القرآن ، لا يغلط في تأويلها أهل المعرفة بالله والإيمان ، وجعلوا حججهم في جهلهم وكفرهم أحاديث افتعلها الضلال من أعداء الإسلام ، وبأحاديث لم يعرفوا كيف مخرج تأويلها ، فضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

[الرؤيـــة]

فكان مما جهلوا تأويله ونسبوا فيه إلى الله سبحانه ما لا يشبهه قوله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] ، فتأولوا نظر الوجوه إلى الله تعالى أنها لله جل وتقدس معاينة ، وقد ذكر الله سبحانه في غير هذا الموضع من القرآن ما يدل على خلاف ما تأولوا ، وما بيَّن به كذبهم على الله سبحانه وجهلهم إذ جهلوا ، أن يقول سبحانه مخبرا عن أنه لا يعاين في الآخرة ولا في الدنيا: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ [الأنعام:١٠٣]. فأخطأ في قول الله عز وجل: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة: ٢٣] الجهلة العماة الكفار ، وإنما أراد سبحانه بالوجوه الناضرة: الوجوه النضيرة البهية المشرقة ، وأراد تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ أي: وجوه المؤمنين ناضرة منتظرة لثواب الله عز وجل

إياها ، وما وعدهم به من صدق وعده في النعيم والرحمة والكرامة ، وهذا في لغة العرب معروف غير منكر ، يفهمه منهم من يعرف اللسان العربي إذا فكر.

يقولون عند الرجاء والأمل فيما وعد من رحمته ، ما أخبر به المؤمنين من ثوابه لهم يوم عقابه في الآخرة لأهل المعصية ، ويقول المؤمن في الدنيا عند الأمر يغمه ويكربه في دنياه وعسرته: ما أنظر إلا إلى الله وإليك ، يريد: النظر إلى الموعد الصادق ينجزه له ، الذي وعده الوفاء به ، فينظر إليه ، أي: ينتظر صدق موعوده فيه.

ومما يدل على صدق هذا التأويل ، قول الله سبحانه في صادق التنزيل ، في الكفار ، وما وعدهم الله عز وجل به من عذاب النار: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:٧٧] ليس بذلك يريد بذلك أنه يدركهم ولا يراهم ، وإنما يخبر سبحانه عن هوانهم عليه واطراحه لهم ، وأنه لا ينظر إليهم بثواب ولا رحمة ، وأنه يزيل عنهم ذلك اليوم كل رضى وكل نعمة.

وأهل الجنة ينظرون إلى الله سبحانه ، ومعنى نظرهم إليه: انتظارهم النعيم ، ودخولهم الجنة التي يصيرون إليها ، لا كما يظن الجاهلون الضالون من نظرهم إلى الله عز وجل جهرة بالأبصار ، عز وجل ذو الجلال والإكرام عن أن تدركه الأبصار!! لأنه ليس بجسم محدود ذي حدود وأقطار ، ومن أدركته الأبصار فقد أحاطت به الأقطار ، ومن أحاطت به الأقطار كانت محيطة به الأماكن جل وتقدس عن ذلك المتعالي الجبار!!

فكل من قال: إنه ينظر إليه يوم القيامة على غير ما وصفنا من النظر إليه ، أنه انتظار ثوابه ، وصدق وعده وكرامته لأوليائه ، فقد زعم أنه يدرك الخالق ويراه ، ومحال أن يدرك المخلوق الخالقَ بشيء من الحواس ، لأنه خارج من

معنى كل محسوس وحاس ، وإنما هذه صفة خلقه تبارك وتعالى من الحيوانات والناس، ، والله سبحانه وتعالى متعالي عن هذه الصفة ، وإنما دركه سبحانه بإيمان القلوب به ، والمعرفة بأنه على خلاف خلقه.

[نفي الأعضاء عن الله تعالى]

وتأولت المشبهة لله جل وعز قول الله سبحانه: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥] ، و ﴿خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا﴾ [يس:٧١] ، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧] ، وقوله: ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج:٦١] ، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران:٢٨ ، ٣٠] ، وقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص:٨٨] ، أن هذه الصفات كلها على صفات ما يدركون من معاني المخلوقين وصفاهم ، في هيئاهم وأفعالهم ونعتهم ، وعلى صفات الأبدان ، وأن اليد من الله - سبحانه وتعالى عما يقولون - يد كيد الإنسان ، فكفروا بالله العظيم ، ولهوا إلى غير الخالق الكبير ، الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فتوهموا أن قول الله سبحانه: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ ، أنه ذو آلة من سمع وأذن مخروقة ، وأن قوله: ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ أنه إنما يُبصِر بعين لامحة وحدقة ، وإنما أراد سبحانه بذكر يده الدلالة على قدرته وتدبيره ، وأنه تولى خلق ما خلق بقدرته وبقوته وحكمته ، لم يشاركه في خلقه معين غيره ، وأنه تولى خلق ذلك وحده بحكمته وقدرته ، لا بمعين أعانه ، بل توحَّد بصنعته هو وحده لا غيره ، فتفرد بخلق ما خلق وصنع ما صنع صغيره وكبيره.

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧] فإنما أراد تبارك وتعالى: أنها تطوى يومئذ مع عِظَمِها وكِبَرِها بقوته وقدرته، تمثيلا بما [١] يطوى باليمين، فيكون مطويا بلا عونِ معين، أخبر سبحانه عن قدرته وقهره لكل ما أراد بقدرته.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك:١] يخبر تعالى أن الملك له لا لغيره، وأنه ولي صنعه وتدبيره، وأنه ممسكه ومالكه كله، كضبط اليد لما تحيط به، وتمسكه [٢] وتحويه لإحاطته، وأنه لا يملكه مالك غيره، فالقدرة له وحده عليه، وذلك في اللسان العربي مفهوم موجود معقول، تقول العرب: الملك بيد فلان، وقد قبض فلان الملك، وصار الملك في يده، يريدون: في ملكه وقدرته، لا في كف بنانه وقبضة كفه، كذلك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما في قبضة الله ويمينه عز وجل.

وتأويل القبضة واليمين أن ذلك كله في قدرته وسلطانه وملكه، لا يشاركه فيه مشارك، ولا يملكه سواه مالك.

وكذلك قوله وهو يذكر يوم الدين ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾ [الانفطار:١٩] وقد يعلم كل مَن عقل وفهم أن الأمر يومئذ واليوم لله عز وجل، فلما زال الملك الذي كان أعطاه خلقه في دار الدنيا عمن ملَّكه إياه، فذهب ملك جميع الملوك فلم يكن يومئذ ملك سواه، قال الله سبحانه: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر:١٦] قال تبارك وتعالى مخبرا عن أنه لا مالك يومئذ غير الله الواحد القهار.

---

(١) في المخطوط: مما.

(٢) في المخطوط: وتمسه.

وقال تبارك وتعالى للعاصي وهو يبكته بعصيانه: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج:١٠] ، و ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠] ، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠] ، يريد سبحانه بقوله: ﴿ يَدَاكَ ﴾: بما كسبت أنت ، وبما كسبتم أنتم ، والآثام والمعاصي تكون بالأيدي والقلوب والفروج والألسنة والأمر والنهي ، وليس يعني: يده د ن بدنه ولسانه وجوارحه.

وقال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وعلى آل بيته: ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب:٥٢] يعني: إلا ما ملكت أنت ، لم يرد اليمين دون اليسار ، ولا اليد دون البدن ، ولا دون النفس ، وقال: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٣٦] ، يريد سبحانه: إلا ما ملكتم أنتم ، وكذلك قول القائل: نواصينا وأنفسنا بيد الله عز وجل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حلف قال: « والذي نفسي بيده » ، يريد باليد: في قدرته ، وملكه وسلطانه وقوته.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] ، يريد بذلك سبحانه: بآياته العظمى ، فعاينها المكذبون العصاة عيانا كفاحا ، وتقول العرب إذا جاءت جنود الملوك فغلبوا قوما كانوا عالين لغيرهم ممن دونهم: جاءهم والله الخليفة فلم يكن لهم عليه قوة ، ولا به طاقة ، و لم يأتهم الخليفة ، وإنما جاءهم قدرته وتدبيره وسلطانه وجنوده المبعوثة ، ولا يتوهم المجيء من الله سبحانه كمجيء بدن من الأبدان ، ولا زواله من مكان إلى مكان ، جل عن ذلك وتقدس من هو بكل مكان موجود!! لا بصفة الجسم الزائل - من موضع إلى موضع - المحدود.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ﴾ [البقرة:٢١٠] ، يعني تعالى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله وحكمه وعقوبته وآياته ، وما يُرعب أهل معصيته من الغمام وغيره من عقوبته.

وكذلك قوله: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النحل:٢٦] (١) ، يعني: أتاهم أمر الله سبحانه وعقابه ، وأخذه وعذابه ، من حيث لم يحتسبوا ، وإتيان الله سبحانه إتيان أمره وقدرته ، وحكمه وسلطانه وقوته ، لا بالانتقال والزوال ، لأن الزائل مدبَّر محتاج إلى الانتقال ، لولا حاجته إلى الزوال لم يزل ، والله جل وتقدس أجلُّ وأعلى وأقدر من أن يزول أو ينتقل ، ولهذا نفى الموحدون عن الله سبحانه الزوال والانتقال.

[كلام الله مخلوق محدث]

ومما غلطت به المشبهة الضُّلال ، قول ذي العزة والجلال: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء:١٦٤] ، فذهبوا إلى أن الله - تعالى عما يقولون علوا كبيرا - تكلم بلسان وشفتين ، وخرج الكلام منه والصوت كما يخرج من المخلوقين ، فكفروا حين ذهبوا إلى هذه الصفة كفرا بينا.

ومعنى كلامه سبحانه عند أهل العلم به: أنه أنشأ كلاما أحدثه كما يشأ ، فسمعه موسى صلى الله عليه وفهمه ، ولم يجعل الله بينه وبين موسى ملكا رسولا ، وأسمعه النداء ، فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠] والنداء غير المنادي ، والمنادي هو الله جل ثناؤه ، والنداء غير الله

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... من لا حيث لا يحتسبوا ﴾. ولا يوجد بهذا اللفظ.

تباركت أسماؤه ، وما كان غير الله تعالى فمحدَث لم يكن [ثم] كان ، والله الأول القديم الذي لم يزل ولا يزول ، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣] ، يريد: أحدثناه وأنزلناه قرآنا عربيا ، وكذلك قال سبحانه: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩] ، وقال سبحانه: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء:٢] ، وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه:٩٩].

[معنى { سميع عليم }]

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج:٦١] يريد بذلك: أنه لا يخفى عليه المسموعات كلها ، وأنه عالم بالأشخاص والأشباح ، وصفاتها وهيئاتها ، وباطنها وظاهرها ، لا يخفى عليه شيء من درك الأبصار مما يدرك الأبصار منها كلها ، بل دركه لها وعلمه بها أجود وأبلغ من درك الأبصار كلها.

[معنى وجه الله]

وأما قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] ، وقوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧] ، فإنما يريد تعالى: أن كل شيء فانٍ هالك إلا هو لا غيره ، ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ، يريد: يبقى ربك وحده ، لا يريد بذلك ولا يعني: وجها في جسد ، ولا جسدا ذا وجه ، تعالى الله عن هذه الصفات ، التي هي في المخلوقين موجودات!!

[معنى نفس الله]

وأما قوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمـران:٢٨ ، ٣٠] فهـو: ويحذركم إياه لا غيره ، وقوله عن عيسى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦] ، يعني: أنت تعلم ما أعلم ولا أعلم أنا مـا تعلم ، كما يقول القائل: هذا نفس الحق وهذا نفس الصواب ، يريد: هذا هو الحق ، وهذا هو الصواب ، وهذا وجه الرأي ، وهذا وجه الكلام ووجه الحق ... (١) كقوله ولا نظـير: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

فكل من وصف الله جل ثناؤه بشيء من صفات خلقه ، من الإنس والجن أو غيرهم ، أو توهمه صورة أو جسما من الأجسام ، أو مثّله بالأجسام ، أو زعم أنه في مكان دون مكان ، أو أن الأقطار تحويه ، أو أن الحجب تستره ، أو أن الأبصار تدركه ، فقد شبَّهه بالأجسام ، لأن هذه الصفات كلـها صـفات الجسم والأبدان ، أو أنه يشبه شيئا مما خلق ، فقد وصفه بغير ما هو عليـه ، ونسب إليه ما ليس فيه ، وكفر به وأشرك بينه وبين غـيره في صـفته ، والله متعالي عن صفة المخلوقين ، بريء أن يُمثّل بشيء من صفات المحدثين.

---

(١) فراغ في الأصل.

[العدل]

وينبغي للمؤمن إذا وحَّد الله وعرف أنه ليس كمثله شيء ، أن يعرف الله برحمته لعباده ، ويعلم أن الله عدل حكيم رحيم ، لا يجور على أحد من خلقه ، بل يكلفهم ما يستطيعون دون حقه ، لا يكلف عباده إلا ما يطيقون ، ولا يسألهم إلا ما يجدون ، ولا يجازيهم إلا بما يكسبون ، وهكذا قال تبارك وتعالى في كتابه الحكيم: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق:٧] ، وقال سبحانه: و ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦] ، وقال جل وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] ، فلم يكلف الكريم الرحيم أحدا من خلقه ما لا يستطيع ، بل كلفهم دون ما يطيقون ، وفرض عليهم أقل ما يستطيعون ، وعذرهم لحدوث الآفات التي امتحنهم فيها ، ووضع عنهم الفرض عند حلولها ، فقال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور:٦١ ، الفتح:١٧] إذا زالت عنهم الاستطاعة والإطاقة ، عندما حل بهم ما حل من الآفة ، و لم يقدروا على أداء الفريضة ، و لم يقل جل ثناؤه: ليس على الكافر حرج ولا على السارق حرج ولا على الزاني حرج ، إذ كانوا مستطيعين لترك الزنا والكفر والسرقة ، ولأنه سبحانه ... (١) [فتعالى] الله عن كذبهم علوا كبيرا.

(١) قال في هامش المخطوط: لعله سقط من هذا البياض قدر ورقة والله أعلم.

[الطاعة والمعصية فعل للعبد]

والدليل على أنهم إنما فعلوا ما فعلوا من طاعة أو معصية بأهوائهم وإرادتهم، قوله عز وجل: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق:٢٠]، ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء:٣٩]. ولو كان الله عز وجل الفاعل لأعمالهم لم يخاطبهم ولم يلمهم على تقصيرهم، ولم يمدحهم على ما كان من حسن أعمالهم، كما لم يخاطب المرضى فيقول: لِمَ مرضتم؟ ولم يخاطب العميان فيقول: لِم عميتم؟ ولم يخاطب الموتى فيقول: لِم متم؟ ولم يعاتبهم على ما لم يفعلوا من خلقهم فيقول: لم طُلتم ولم قَصُرتم؟

[المعاصي ليست بقضاء الله وقدره]

والدليل على [أن] المعاصي ليست بقضائه ولا قدره، ما أنزل الله في كتابه من ذكر قضائه بالحق، وأمره بالعدل، وتعبُّده عباده بالرضى بقضائه وقدره، وإجماع الأُمة كلها أن الله سبحانه لم يقض الجور والباطل، ولم يكن منه الظلم، وأنهم راضون بقضاء الله، منقادون لما أراد الله، وإذا نزلت بهم الحوادث من الأسقام والمصائب والموت التي هي من قِبَل الله قالوا: هذا بقضاء الله، رضينا وسلّمنا، فلا يسخط ذلك منهم أحد، ولا ينكر منهم منكر، وإن سخطه ساخط كان عندهم من الكافرين.

فإذا ظهرت فيهم الفواحش، وانتهكت المحارم، كانوا لها كارهين، وعلى مَن فعلها زارين [1]، ولهم معافيس يتسترون منهم، ويلعنونهم بذنوبهم وأعمالهم، وهذا دليل على أن ذلك ليس من قضائه ولا قدره، وذلك لأنه

(١) زارين، من الإزراء.

فعل مذموم قبيح فاحش هو ومَن فَعَلَه ، وقضاء الله وقدره لا يكون جورا ولا فاحشا ، ولا قبيحا ولا باطلا ولا ظلما ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً!!

[المرجئة]

وليحذر العبد المؤمن أيضا هذه الطائفة المرجئة ، فإن قولهم أسوء قول وأخبثه. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أنه قال: « صنفان من أُمتي لا تنالهم شفاعتي يوم القيامة ، لعنوا على لسان سبعين نبيا ، القدرية والمرجئة. قيل: وما القدرية والمرجئة يا رسول الله؟ فقال: أما القدرية فالذين يعملون المعاصي ويقولون هي من الله ، والله قدرها وقضاها علينا ، وأما المرجئة فهم الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل »[1].

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما بعث الله نبيا قط إلا وفي أمته قدرية ومرجئة يشوشون عليه أمر أمته ، وإن الله قد لعن القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيا.

أخرجه الطبراني في مسند الساميين ١/٢٢٤(٤٠٠) ، وفي المعجم الكبير ٢٠/١١٧(٢٣٢) ، وابن حجر في لسان الميزان ٤/٣٨١(١١٤٦) ، ٦/٢٧٦(٩٦٩) ، وابن عدي في الكامل ٦/٢٢٨(١٧٧٣) ، وابن حبان في المجروحين ١/٣٦٢(٤٧٨) ، والخطيب البغدادي في تاريخه ١٤/٣١٩(٧٦٣٩) ، وأبو القاسم الجرجاني في تاريخه بلفظ قريب موقوف على ابن عمر ١/٣٣٦(٦١٨) ، وغيرهم كثير.

وأخرجه بلفظ: صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي القدرية والمرجئة قلت يا رسول الله ما المرجئة؟ قال: قوم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل. ابن حبان في المجروحين ١/٣٣٦(٤٢٣) ، ٢/١١٢(٦٩٠) ، وابن فلاتة في الوضع في الحديث ١/٢٥٧ ، والكناني في التتريه ١/٣١١ ، والجويني في جنة المرتاب ١/٤٧. وغيرهم.

وبلفظ: صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب.

فهذان قولان فيهما ذهاب الإسلام كله ، ووقوع كل معصية ، وذلك أن القدرية – لعنهم الله – قالوا: إن الله جل ثناؤه قدَّر المعاصي على عباده وخلقها فيهم ، وقضاها عليهم ، فهم لا يمتنعون ولا يستطيعون تركها.

وأما المرجئة فرخصوا في المعاصي ، وأطمعوا أهلها بالجنة بلا رجوع عنها ولا توبة منها ، وشككوا الخلق في وعيد الله ، وزعموا أن كل من ركب كبيرة من معاصي الله مؤمن كامل الإيمان عند الله ، بعد أن يكون مقراً بالتوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن جميع أعمال البر من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وغير ذلك ليس من الإيمان ، ولا من دين الله ، وأن الإيمان إقرار باللسان ، فشهدوا لإبليس – لعنه الله – بالإيمان ، لأن إبليس – غضب الله عليه – مقر مؤمن بربوبية الله عز وجل ، وعرفه باللسان ، وقد عصى الله سبحانه [بـ] كبير العصيان ، فهذان القولان – رحمكم الله – فاحذروهما ، فإنهما هما اللذان أهلكا العباد والبلاد ، فنعوذ بالله منهما ، ونتبرأ إلى الله ممن قال بهما.

الترمذي في السنن ٤/٤٥٤(٢١٤٩) ، وابن ماجة ١/٢٤(٦٢) ، ١/٢٨(٧٣) ، والطبراني في الكبير ٨/٢٨١(٨٠٧٩) ، ١١/٢٦٢(١١٦٨٢) ، والأوسط ٢/٣٧٢(١٦٤٨) ، وعبد بن حميد في المنتخب ٢٠١(٥٧٩) ، والمزي في تهذيب الكمال ١٦/١٠٤(٣٥٥٣) ، ٢١/١٥٥(٤١٤٣) ، ورواه ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/٢٥١(٥٠٣) ، والذهبي في التذكرة ٣/١٢٠٠(١٠٣٢) ، وابن عدي في الكامل ١/٢٨٨(١٢٦) ، وابن معين في تاريخه ٤/٣٨٥(٤٩٠٦) ، وابن حبان في المجروحين ١/٣٣٦(٤٢٣) ، والعقيلي في الضعفاء ٢/١٢٣(٢٠٦) ، والبغدادي في تاريخه ٥/٣٦٧(٢٨٩٣) ، والجرجاني في تاريخه ١/٥٠٢(١٠٢٠) ، والدار قطني في العلل ١/٢٨١(٧٢) ، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث/٧٧ ، والبخاري في الكبير ٤/١٣٣(٢٢٢٣).

[الصـــلاة]

فإذا دان المؤمن بما وصفنا من توحيد الله وعدله ، وعرف الله فصدّق وعده ووعيده ، فعليه بعد ذلك أن يؤدي إلى لله ما افترض الله عليه من دينه من فرائضه ، من الصلوات الخمس على حدودها ، في تمام ركوعها وسجودها.

[الجهـــاد]

وعليه الجهاد في سبيله لجميع أعداء الله ، من الكافرين والفسقة الجائرين ، إن أمكنه جهادهم بيده ، وإلا فعليه إنكارُ منكرهم بقلبه ، والبراءة إلى الله منهم باعتقاده وضميره ، والتنحي عن مجاورتهم ، والتقرب إلى الله بمباعدتهم وهجرتهم.

[الكبائر]

وعلى المؤمن أن يجتنب كل ما نهى الله عنه من معاصيه كلها ، من الكفر وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها ، وأخذ ما لا يملكه من أموال الناس ظلماً ، وأن يجتنب ما حرم الله من الربا ، وشرب الخمر فعليه أن يجتنبها كلها ، وأن يعلم أن كلما أسكر كثيره فحرام في دين الله وسنة نبيه قليله ، وأن يحرم ما حرم الله من إتيان ذكور الرجال ، وعلى المؤمن أن لا يفر من الزحف ، ولا يولي دبره عند الجهاد والقتال ، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة.

[بر الوالدين]

وعلى المؤمن من فرض الله في بر والديه وإن كانا عاصيين ، لقول الله سبحانه في الوالدين: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [البقرة:٨٣]. وقوله في الوالدين وإيجاب

برهما ، وتوكيدا على الولد فيهما: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان:١٥].

وعلى المؤمن اجتناب كل ما يعلم أنه لله معصية ، فلا يقربه ، فإن الله تعالى قد نهى عن كبير الذنوب وصغيرها ، فقال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٣١]. فليتق الله كل عبد أراد من المؤمنين النجاة عند الله ، فلا يُرى على معصية الله ، ولا يركبها متأولا ، وقد جعل الله له السبيل إلى تركها ، وعرَّفه إياها ، وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس:٧-٨]. يعني سبحانه بقوله: ﴿ أَلْهَمَهَا ﴾: عرَّفها فجورها وتقواها.

فليس عالم ولا جاهل من البالغين يعمل منكراً ، ولا يأتي معصية ولا يفعل شرا ، إلا ونفسه تنكره ، وهي ملهمةٌ معرفةَ الشر إذا فعلته ، ومعرفة التقوى والعلم الصالح إذا عملته.

فليكن العبد المؤمن أبدا متيقظا ، متنبها لنفسه في العمل بطاعة الله واجتناب معصيته ، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١]. يعني: تائبون ، ولم يقل: فإذا هم مصرون.

[الرجاء]

وينبغي للمؤمن أن يكون أبدا متيقظا متحفظا راجيا خائفا ، يرجو الله لما هو عليه من الإحسان ، ولما يكون من ذلك ، رجاء لا قنوط فيه ، ويخافه على الإساءة الموبقة إن فعله ، خوفا لا طمع فيه إلا بتوبة منها ، والخوف والرجاء أبدا قريناه لا يفارقانه ، وبذلك وصف الله جل ثناؤه المتقين من خلقه وعباده

، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧] ، فهذا صفة المؤمنين ، وبهذا أثنى الله على المتقين.

[شكر الله]

واعلموا - رحمكم الله - أنه ليس أحد يؤدي كل ما يستحق الله من عباده ، من شكر نعمته وإحسانه ، أداء كمال ولا تمام ، حتى لا يبقى مما يحق لله من شكره شيء إلا أداه ، وكيف يكون هذا؟! والله يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤ ، النحل:١٨]. فكيف تؤدون شكر ما لا يحصى؟! و لم يفترض جل ثناؤه على خلقه ذلك ، ولا يسألهم إياه ، إذ علم أنهم لا يطيقون أداءه ، فترك جل ثناؤه الاستقصاء عليهم ، فلم يسألهم كل ما يجب له عليهم ، وغفر لهم صغير ذنوبهم كلها ، إذا اجتنبوا الكبائر مما ينهون عنه ، رحمة لهم ورأفة منه لهم.

[التوبة]

وينبغي لمن كان يعقل من المسلمين أن لا يرجو الرحمة وهو مقيم على كبيرة من الذنوب ، إلا أن يكون منها من التائبين ، فنرجوا حينئذ عفو الرحمن الرحيم ، فقد وصف الله سبحانه الراجين لرحمته ، وكيف وضعوا الرجاء في موضعه ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة:٢١٨]. وذلك أن للجنة والنار طريقين ، فطريق الجنة طاعة الله المجردة من الكبائر من معاصي الله عز وجل ، وطريق النار معصية الله وإن لم تكن مجردة من بعض طاعاته ، لأنا

قد نجد العبد يؤمن ببعض كتاب الله ويكفر ببعضه ، فلا يكون مؤمنا ، ولا لما أخبر الله به من النار ناجيا ، فصدَّق ما قلنا قولُ الله سبحانه: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٨٥]. فلم يُسمَّوا بما آمنوا به من الكتاب إذ كفروا ببعضه: مؤمنين ، ويُسمَّوا إذ لم يؤمنوا بالكتاب كله: كافرين.

[موالاة أولياء الله]

وعلى العبد أن يوالي أولياء الله ، حيث كانوا ومن كانوا ، أحياءهم وأمواتهم ، ذكرانهم وإناثهم ، ويكون أحبهم إليه وأكرمهم عليه ، أتقاهم لديه ، وأكثرهم طاعة له ، والمؤمنون هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في كتابه فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢].

وقال تبارك وتعالى في صفة المؤمنينوقال تبارك وتعالى في صفة المؤمنين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون:١ - ١١].

وقال تبارك وتعالى في صفة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥]. فقد دخل الصفة كل طاعة ، لأن الجهاد في سبيل الله يأتي على كل طاعة ، فمن أطاع الله في أداء فرائضه واجتناب محارمه ، فهو مجاهد لنفسه في طاعة ربه واتباع أمره ، وترك هوى نفسه ، فلا جهاد أفضل من مجاهدة النفس لردها عن هواها فيما يرديها ، من مجاهدة الشيطان عدو الله فيما يدعوها إليه من ذنوبها ومعاصيها.

[معاداة الكافرين والفاسقين]

ويلزم المؤمن أن يعادي أعداء الله الكافرين ، أين كانوا وحيث كانوا ، أحياءهم وأمواتهم ، ذكرانهم وإناثهم ، ويلزم المؤمن أن يعادي أعداء الله الفاسقين ، الذي أقروا بفرائض الله في الدين ، ثم فسقوا بالعصيان لله معاندين ، وهم العصاة لله المخالفون الجائرون ، الذين يسعون في الأرض فسادا ، أو أن يتبرأ منهم المؤمن ، من كانوا وحيث كانوا ، من قريب أو بعيد ، لقول الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢].

وكل من أتى كبيرة من الكبائر ، أو ترك شيئا من أوجب الفرائض على الاستحلال لذلك فهو كافر مَرِيد ، حكمه حكم المرتدين ، ومن [ترك] ذلك

اتباعا لهواه وإيثارا لشهوته ، كان فاجرا فاسقا ، كافرا كفر نعمة لا كفر شكر وجحود ، ما أقام على خطيئته ، فإن مات عليها غير تائب منها كان من أهل النار خالدا فيها أبدا وبئس المصير.

وقال الله في تبيين ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝ ﴾ [الانفطار:١٣ - ١٦]. ومن لم يغب عن النار فليس بخارج منها ، ومن أتى كبيرة من الكبائر فهو فاجر فاسق كافر لنعم الله ، يبين ذلك قول الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ ﴾ [النور:٤]. إلا أن يتوب القاذف ، فإن الله يقبل التوبة من التائبين ، وليس من أتى الكبائر كافرا لنعم الله ، ولا نسميهم: كافرين من طريق الشرك بالله ، فإذا كان قاذف المحصنة فاسقا ملعونا متعديا ، فالزاني بالمحصنة أعظم جرما ، والسارق وقاتل النفس بغير الحق وآكل أموال اليتامى ظلما. ومن أتى غير ذلك من كبائر الذنوب أكبر ظلما.

ويجب على المؤمن أن يجتنب الظالمين والفاسقين والمعونة لهم على فسقهم ، والمحآلة لهم على لهوهم ومعاصيهم ، وعلى المؤمن [أن] يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لأن على المؤمن إذا رأى منكرا فقدر على تغييره لم يؤخر تغييره ساعة ، لأن الله سبحانه قال للمؤمنين: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١٠٤]. فعلى المؤمن أن ينهى عن المنكر بلسانه ، فإن لم ينته صاحب المنكر عنه فبيده ، فإن لم ينته من يفعل المنكر عن منكره جاهده إن أمكنه ذلك بسيفه ، فإن كان ممن لا يقوى على إنكاره إلا بجماعة من المؤمنين ، وخاف على نفسه ، فعليه

إنكار المنكر بقلبه ، والهجرة لمن فعله ، والإصار إن أمكنه الإنكار عليه بيـــده ومجاهدته ، وذلك الواجب عليه فيما بينه وبين ربه.

[التوبة]

وعلى العبد أن يتقي الله في سر أمره وعلانيته ، ويستغفر الله ويتوب إليه من ذنوبه ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وبذلك وصف نفسه ، قال جل ثناؤه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢]. ودعا تبارك وتعالى عباده إلى التوبة وأخبرهم أنه يقبلها ، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠] [1]. وقال: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

فمن تاب إلى الله قَبِلَ توبته ولو كانت ذنوبه عدد الرمل ، لأنه سبحانه كريم ، وهو بعباد رؤوف رحيم ، يقبل التوبة ، ويقبل المعذرة ، ويغفر الخطيئة ، إذا صحت من العبد التوبة ، قال الله جل ثناؤه في التوبة على عباده من ذنوبهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]. فمن تاب من ذنبه كانت توبته مقبولة عند الله ربه ، قال الله سبحانه في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢]. يعني: المتطهرين من الذنوب ، ومن أحب اللهُ لم يعذبه ، وكان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فافهموا هذا رحمكم الله.

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... إن ربي قريب مجيب ﴾ ، ولا يوجد بهذا اللفظ.

وكذلك أخبر الله عن ملائكته وهم الملأ الأعلى ، وأهل السموات العلى ، الـذين لا يرضون إلا عمن هو عند الله رضى ، قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [غافر:٧ - ٨] (١).

[التوبة من حقوق الله]

والتوبة - رحمكم الله وهداكم - لها وجوه وتفسير ، فكل ذنب بين الله وبين عباده وإمائه ، نحو الزنا وشرب الخمر وإتيان الذكور بعضهم بعضا ، وإتيان النساء بعضهن بعضا ، واستماع محرم اللغو والعكوف عليه ، وهو الأوتار من العيدان والغناء ، وقول الزور ، وقذف أهل الإحصان من الرجال والنساء ، والرفث والجدال ، والفجور والكذب ، والمرح والخيلاء ، والكبر والرياء ، والعجب ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، والنظر إلى ما لا يحل من العورات وغيرها ، والفرار من الزحف ، من غير تحرف لقتال أو تحيزا إلى فئة ، والغيبة والنميمة ، وما أشبه ذلك من الذنوب ، ومعاداة أولياء الله ، وموالاة أعداء الله.

والتوبة من هذا كله قليله وكثيره الندم على ما مضى منه ، والعزم على تركه والإقلاع عنه ، ولا يعود أبدا إليه ، ولا يقربن شيئا منه قل أو كثر.

(١) في المخطوط: ﴿ ... وذرياتهم لمن صلح وأتقى من المتقين ﴾. ولا يوجد بهذا اللفظ.

[التوبة من حقوق الناس]

فكل مَن ظلمه وآذاه من مسلم أو معاهد ، فليستحلهم ويعتذر إليهم من ظلمه ويرضيهم ، وكل ذنب كان بين العبد وبين الناس مسلمهم ومعاهدهم ، من سرقة أو ربا في أموالهم ، أو أخذ مال بغير حق في حياته ، أو غصب ، أو إدخال ضرر عليهم في الأبدان ، كالقتل والجراحات والضرر الشديد. فالتوبة أن يرد المال إلى أهله حيث كانوا ، إن قدر على ذلك وكان له مال ، فإن لم يكن له مال جعله دينا عليه ، وعزم أن يرده إلى أهله ، أو على ورثتهم إن كان أهله ماتوا ، والندم على ما أخذه ، ويستغفر الله منه ، ويعطي الله من نفسه ألا يعود إلى مثل ذلك أبدا.

ولا تجزيه التوبة من الأخذ إذا كان حابسا للرد حتى يرد ما أخذه ، فإن استوهبه كان ذلك حلالا بعد الإقرار به على أجمل الوجوه ، وإن صالحوه فأخذوا بعضا وتركوا بعضا على غير قَسْرٍ أو إكراه لهم كان ذلك جائزا.

فإن لم يعرف أصحاب المال الذين أخذ مالهم ، وأيس أن يعرفهم أو يعرف ورثتهم ، تصدَّق بمقدار ما أخذ منهم على المساكين ، عن أصحاب المال الذين غصب أو سرق ، فإن جاءوا بعد ذلك إليه ، وأخبرهم أنه قد تصدَّق بذلك عنهم ، فإن رضوا لم يكن عليه شيء ، وإن أرادوا حقهم لزمه أن يرده عليهم إذا قدر عليه ، وكان ذلك صدقة له يؤجر عليها ، وإن كان محتاجا وأنفقه على نفسه كانت توبته عند الله مقبولة ، وكان المال لازما له متى يجد ويمكنه قضاؤه فيقضيه ، وإن كان الذين أخذ أموالهم نائين [1] في البلدان ، فلم يقدر على الخروج إليهم به ، لعلة أو مرض أو فاقة حائلة بينه وبين ذلك ،

(١) في المخطوط: نائيا. وما أثبت اجتهاد.

أوصى بأن يُبعث به إليهم ، لأن عليه أن يوصل إليهم حقوقهم حيث كانوا ، ويستحلهم من أخذه وغصبه وإنفاقه ، ثم لا شيء لهم بعد ذلك ، وتوبته مقبولة فيما بينه وبين الله جل ثناؤه ، وإن لم يدرِ كَمْ المال [١] الذي أخذ من أموال الناس ، ونسي وكثر ذلك عليه ، فليتحرَّ ما لكل واحد على قدر مبلغ علمه ، ويحتاط في ذلك بالزيادة على نفسه ، فإن زاد كان له أجر ذلك ، وإن نقص قليلا لم يضره بعد أن يتعمد الوفاء ، ويستغفر الله ويعزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك أبدا.

[هبات الظالمين]

وإن صار إليه مال من ناحية ظالم غاصب وهو به عالم ، بسبب معونة له في ظلمه ، ودخوله معه في غصبه ، وأخذ ذلك هبة منه ، وهو يعلم أنه ظلم وغصب ، فالتوبة مما أخذ أن يخرجه من عنده فيرده على أهله المغصوبين إياه ، ولا يحل له أن يرد شيئا من ذلك إلى الغاصب لأنه ليس له.

وإن كان أنفقه وليس عنده شيء منه كان ضامنا لرده إذا أمكنه على أهله ، وتاب إلى الله جل ثناؤه من إنفاقه.

[التوبة من الربا]

فأما ما كان من الربا فالتوبة منه ما وصفنا من الندم والاستغفار منه ، وأن يخرج كل فضل فوق رأس ماله فيرده على أهله إن عرفهم ، وإن لم يعرفهم تصدق به عنهم.

---

(١) في المخطوط: الأموال. وما أثبت اجتهاد.

[التوبة من القتل العمد]

وأما ما كان من القتل فلا توبة لقاتل المؤمن حتى يندم على القتل ويستغفر الله منه ، ويعزم على أن لا يعود إليه أبدا ظالما ، ويُمكّن أولياء المؤمن المقتول من نفسه صابرا محتسبا ، ويُعلمهم أنه قتل صاحبهم ظالما متعمدا ، فإذا فعل ذلك فهو تائب لا شيء عليه من إثم القتل ، فإن قتلوه فائزا فحق هو لهم ولا تبعة لهم عليه ، ولا حق للمقتول لديه ، وإن عفوا عنه فلهم أن يعفوا عنه ، لأن الحق بعد المقتول لأولياء المقتول ، ويعوض الله جل ثناؤه المقتول المؤمن إذا كان مؤمنا صابرا.

وكذلك قال الله سبحانه: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [الإسراء:٣٣]. فقد سلّط الله أولياء المقتول على القاتل ، إن شاءوا قتلوه وإن شاءوا عفوا ، فإن تاب فيما بينه وبين الله ولم يُمكّن أولياء المقتول من نفسه لم تُقبل توبته ، فإن لم يعرف القاتلُ أولياءَ المقتول عزم القاتل أن يُمكّن أولياء المقتول من نفسه متى عرفهم ، فيصنعوا به ما لهم عليه من القتل أو الدية أو يعفوا ، ولا يدفع نفسه إلى سلطان ولا إلى غيره إلا إلى أولياء المقتول ، فإن لم يفعل هذا كان كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣].

[التوبة من الجراحات]

وأما ما كان من جراحات سوى القتل مما يجب فيه القصاص فإنه يتوب إلى الله جل ثناؤه منها بالندم عليها ، والإقلاع عنها ، والعزم على أن لا يعود إليها ، وأن يُمكّن من نفسه مَن جرَحَه ، فإن اقتص منه فلا شيء عليه ، وإن

عفا عنه فذلك إليه ، وإن كانت جراحات قد بَرِأ أصحابها منها ، و لم يكن أمكنهم من القصاص من نفسه ، فلم يعلم مقدارها للبرء فلا قصاص ، لأنه لا يعلم قدر ذلك.

وعليه أرش الجراحات ، فإن مات أصحابها دفع ذلك إلى ورثتهم الذين يقومون بذلك ، فإن كان لا يعرف أصحاب الحقوق ولا ورثتهم ، دفع ذلك القدر إلى المساكين إن قدر على ذلك ، وما كان من الجراحات مما لا قصاص فيه مما يكون فيه حكومةُ عدل ، دفع ذلك إلى أصحابه إن كانوا أحياء ، أو إلى ورثتهم إن كانوا موتى ، فإن لم يعرفهم ولا ورثتهم دفع ذلك إلى المساكين.

وكذلك في كفارة الخطأ فليفعل كما أمر الله سبحانه في كتابه ، وكذلك في كفارة الظهار فمن لم يقدر على ذلك ، فالتوبة على ما أمر الله.

وأما ما كان من ضرب أو لطم مما لا يمكن القصاص فيه ، فالتوبة منه الاستغفار والندم ، وأن لا يعود إلى مثله أبدا ، وأن يرضي أصحابه إن عرفهم ، أو يتحللهم.

[التوبة من الغيبة ونحوها]

وأما ما كان من ظلم الناس من نحو اغتياب وتجسيس وسوء ظن ، وسعاية إلى ظالم ، أو كذب على أحد ، فالتوبة إلى الله تعالى من ذلك أن لا يعود إلى مثله أبدا ، ويتحلل من ذلك ممن فعله به ، فإنه أحسن وأفضل ، فإن لم يمكنه التحلل و لم يفعله رجونا أن لا يضره ذلك.

وكذلك إن أساء إلى مماليكه في مطعم أو ملبس مما لا يحل له أن يفعله بهم ، أو عاقبهم عقوبة أسرف فيها ، أو شتمهم بما لا يحل له ، فليتب إلى الله جل ثناؤه ، وأن يتحلل مماليكه ، فهو أحسن وأشبه بالتواضع والخضوع لله.

وإن استدان رجل مالا ينفقه على نفسه وعياله بالقصد كما أمر الله جل ثناؤه ، وكان عزم أن يؤديه إذا أيسر وأمكنه ، فمات قبل أن يؤديه وليس له مال ولم يترك وفاء ، فلا شيء عليه فيما بينه وبين الله عز وجل ، ولا بينه وبين صاحب الدين ، ويعوض الله صاحب الدين ، لأن الله العدل الذي لا يكلف ﴿ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، و ﴿ مَّا ءَاتَىٰهُ ﴾ [الطلاق:٧] ، وقد أمر الله بإنظار المعسر في الدَّين ، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾.

وإن ادَّان فنسي أن لا دين عليه لأحد ، فلا شيء عليه مع النسيان ، إذا لم يكن نسيانه ذلك من تشاغله بمعصية ، من سكر وغيره من معصية الله عز وجل ، وإن أخذ دينا فلم يؤده إلى أصحابه حتى ماتوا ، فليؤده إلى ورثتهم ، فإن لم يعرف لهم وارثا وانقطعت آثارهم وذكرهم ، فليتصدق به على المساكين عن أهله ، وقد سلم من الإثم إذا تاب عن حبسه ، وقد كان يعقد على أدائه.

فإن استقرض مالا فأنفقه حيث يحل له أو يحرم عليه ، وكان من عزمه ألا يؤديه على أهله فهو فاسق ، وتوبته من ذلك الاستغفارُ والندمُ وردُه على أهله ، فإن كان معسرا عزم على أدائه إليهم إذا قدر عليه ، وأشهد لهم بذلك على نفسه إن أرادوا ذلك منه ، وقدر على أدائه ، فإن ماتوا ولم يكن لهم ورثة تصدَّق به عنهم على المساكين ، وإن كان محتاجا أكل منه بغير سرف ، وكان له ضامنا أن يؤديه إذا قدر على أدائه.

وإن أخذ أموال الناس من طريق الدَّين وكان من شأنه أن لا يقضيه ولا يؤدي وجحد ذلك ، ثم مات مصرا على ذلك ، فأقام أصحاب الدين على ورثته البينة ، أو عرف ذلك الورثة فعليهم أن يؤدوه إلى أهله ، والميت من

أهل النار لا ينجيه من ذلك أداء ورثته عنه ، لعزمه ألا يؤديه ، وموته غير تائب ، مصرا على أخذ ما ليس له ظلما وعدوانا ، ولا يحل لورثته إذا عرفوا أن ما خلف من أموال الناس أن يأكلوه ولا يستنفقوه.

[الأيمان]

وإذا حلف المؤمن بأيمان الله وهو كاذب متعمدا للكذب من غير إكراه ولا خوف ، فقد عصى وفسق ، وتوبته من ذلك أن يستغفر الله ولا يعود ويندم على ما كان منه ، وليس عليه كفارة ، وإن كان حلف بما فيه كفارة ثم حنث فعليه كفارة لكل يمين.

والأيمان أربع: فيمينان يُكَفَّران ، وهو قول القائل: لأفعلن كذا وكذا فلا يفعل ، وقوله: لا أفعل كذا وكذا فيفعل ، فهاتان اليمينان لا بد فيهما من الكفارة.

واليمينان اللتان لا يكفران ، فهما قول القائل: والله ما فعلت كذا وكذا وقد فعله ، وقوله: والله لقد فعلت كذا وكذا وما فعل ، وهذا كذب ، الواجب فيه التوبة منه.

وكفارة اليمين إذا حنث الحانث إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يأكل هو وأهله ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فمن لم يقدر على إطعامهم وغير ذلك ، فصيام ثلاثة عن كل يمين ، ويستغفر الله من تضييعه الكفارة ولا يعود ، فإن أدركه الموت ولم يكن كفّر عن يمينه من إطعام أو كسوة وهو يقدر على ذلك ، فليوص أن يطعم عنه المساكين من ماله لكفارة أيمانه إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال فلا شيء عليه ، لأن الله سبحانه قد عذر من لا يجد ، وإن كان يعرف الأيمان كم هي فليكفر عددها ، وإن كان لا يعرف عددها فليتوخ قدرا من ذلك يكون الغالب عنده أنه قد

استغرقها أو زاد ، ثم أرجو أن لا يضره زاد أو نقص إذا لم يتعمد ذلك ، وكذلك يوصي بمثل ذلك إذا لم يمكنه القضاء في حياته.

[التوبة من ترك الصلاة والصوم والزكاة والحج]

وإن كان ضيع صلاة أو صياما أو حجا أو زكاة بعدما وجب ذلك عليه ، بالتواني والاستخفاف متعمدا لذلك ، فعليه أن يتوب إلى الله جل ثناؤه من ذلك ، ويقضي ما فاته من الصلاة إن كان يعرف عددها ، ومن الصيام أيضا كذلك ، وإن كان لا يعرف كم هو فليتحر الصواب بجهده ، ويحتاط ويزيد حتى يستغرق ذلك ، ثم نرجوا أن لا يضره إن نقص أو زاد إذا لم يتعمد ذلك. ويقضي تلك الصلوات في أي أوقات صلاته ، من يومه الذي هو فيه أو في غير أوقات صلاته ، وإن كان [ترك] الصلاة متعمدا فلم يقضها نسيانا كان ذلك منه ، ثم ذكرها بعد حين فليقضها ، وإن كان لها ذاكراً فتركها متعمدا حتى مضت له أشهر وسنون فليقضها وليتب مما ضيع ، وإن كان ترك صياما من شهر رمضان أو رمضان كله حتى حضر رمضان آخر ، فعليه أن يصوم هذا الذي حضر ، ويعزم على صيام ما فاته ، فيصوم بعد ذلك ويتوب مما ضيع.

وإن كان ضيع زكاة حتى أدركه الموت فليتب مما ضيع ، ويخرج ما عليه منها فليؤده إلى المساكين إن كان له مال ، أو يوصي بذلك إن لم يمكنه الأداء ، لأنها دين عليه لأهلها الذين سماها الله لهم ، في أي صنف منهم وضعت أجزأت عنه.

وإن كان ترك الحج وهو يقدر عليه حتى أدركه الموت فليتب إلى الله جل ثناؤه من تفريطه في ذلك ، وليعزم على الحج إن قدر عليه ، وإن أوصى أن يُحج عنه بعد موته رجوت أن يجزيه ذلك ، ويخفف عنه مأثم تركه فريضة الحج.

وقد قال بعض من له علم: لا يحج أحد عن أحد ، كما لا يصلي أحد عن أحد ، وكما لا يصوم أحد عن أحد ، لأن هذه الفرائض حقوق لله عز وجل أمر عباده أن يتولوها بأنفسهم ، فإن لم يقدروا عليها و لم يستطيعوا السبيل إليها عذرهم ، وإن فرطوا فيها لم يقم لهم في الأداء لهم غيرهم مقامهم ، إلا أنا نرجوا أن يخفف الله ألم تفريطهم بأن يوصوا بالحجة من أموالهم ، ولذلك لا ينبغي لأحد من المؤمنين الرجال منهم والنساء أن يفرطوا فيما فرض الله عليهم من حجة الإسلام ، إذا لم تكن علة مانعة من زمانة أو سقم أو عدو يخاف التلف به ، يمنعه من المضي لفريضة ربه ، فإن فرط في فريضة الحجة مع سلامة بدنه وقوته على الحجة راكبا أو ماشيا ، كان عند الله غير معذور ، وكان آثما كافرا ، لقول الله في ذكر ما فرض من الحج: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٧]. فجعل سبحانه مَن ترك فرضه في حجة الإسلام كافرا ، و لم يجعل له في ترك ما فرض من الحجة عذرا ، فإن أوصى عند موته بالحج عنه من ماله رجونا أن يُخفّف الإثم في ترك الحج وإغفاله ، وكان للموصي أجر نفقته ، ولمن حج بمؤنة الموصي أجر بدنه ، فافهموا رحمنا الله ورحمكم.

باب ذكر التوبة

وعلى العباد فيما من هذه المعاصي كلها التوبة النصوح إلى الله سبحانه منها ، والتوبة النصوح هي: الندم على ما كان من الذنوب ، وتركها والاستغفار منها ، وترك الإصرار عليها ، والعزم على أن لا يعود المذنب أبدا إلى ما تاب منه من جميع ذنوبه ، فتلك التوبة النصوح المقبولة عند الله التواب الرحيم.

فرحم الله عبد اتقى الله في نفسه ، وتطهر بالتوبة إلى الله قبل الفوت ، ونزول الموت ، بيديه و لم تغره الحياة الدنيا و لم يغره بالله الغرور ، فليبادر مَن غفل بالتوبة قبل أن يسألها فلا يجاب إليها ، والله جل ثناؤه يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء:١٧-١٨].

فالتوبة قائمة مبذولة من حين يواقع العبد الذنب إلى قبل حضور أجله ، ولو بطرفة عين ، وحضور موته الذي لا يقبل له معه وعنده توبة معاينة ملك الموت والملائكة صلوات الله عليهم ، والسبب الذي يشاهده العبد إذا حضره الموت لم يعلمه ولا أحد من البشر غيره ، فحينئذ تعظم ندامته ، وتكثر وتدوم حسرته ، والله بهذا من وقت نزول الموت ، وانقطاع الأجل عن العبد أعلم ، وإنما يأتيه موته وأجله بغتة ، وحينئذ تعظم حسرته إذا فرط في التوبة ، ويندم حين لا تنفعه الندامة ولا الحسرة.

فعلى المؤمن أن يكون أبدا مستعدا ثابتا ، نسأل الله أن يبارك لنا ولكم في قليل أيام الحياة ، وأن يبارك لنا ولكم في انقطاع آجالنا بالموت والفناء ، إذا حل ونزل بنا ، وفي العرض يوم القيامة على ربنا ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:٣٠].

قال محمد بن القاسم رضي الله عنه: وهذه أمور رضيها الله للمؤمنين ، ووصف بها في كتابه المتقين ، وجعلها تمام الإيمان ، ولم يرض الترك لها والتفريط فيها لأحد من أهل الإسلام ، ومنها ما أذكره وأشرحه لكم الآن ، وأتلو عليكم ما نزل الله في ذلك من آي القرآن ، فافهموها - رحمكم الله - ولا تهاونوا بها فتهلكوا عند الله - عصمكم الله - فقد ذكرت لكم في كتابي هذا وفيما مضى منه أصول الدين التي أوجب الله الاعتقاد لها ، والتدين بها على جميع المؤمنين ، وهذه التي الآن أذكرها فروع وصف الله بها وأمر عباده المتقين.

[موالاة المؤمنين]

فأولها: الموالاة بين المؤمنين ، والتوآد على طاعة الله رب العالمين ، حتى لا يوآد العبد ولا يؤاخي إلا من أطاع ربه وآمن به ، وفي ذلك ما أمر الله عباده في وحي كتابه ، فقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢]. ومعنى ﴿يُوَآدُّونَ﴾ هي: يراضون ويحابون من حآد الله ورسوله ، والمحآد لله مَن عصى الله ولم يؤد ما أمر الله بفعله ، فذلك المحآد لله ولرسوله ، ثم قال في ترك موآدة المحآدين من ذوي الرحم الأقربين ، وغيرهم من العصاة الأبعدين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]. يعني سبحانه: بكتب حكم لهم ، وأوجب أن في قلوبهم الإيمان إذا كانوا لا يوآدون ولا يحابون أقرب الأقرباء ، من الأبناء والإخوة والآباء والعشيرة ، الذين هم بعد من سمى أقرب إليهم من

الأجناس البعيدة ، فلم يوجب الإيمان لمن حآده وعصاه وعصى رسوله ، ولا لمن أحبهم وزادهم ، فعلم كل مَن فَهِمَ عن الله أنه لم يوجب الإيمان لمن يوآد أباه وابنه وأخاه وعشيرته على معصية الله ، وأنه يوجب الإيمان لمن أبغضهم وعاداهم ، فهذا فرض الله على من آمن أن لا يوآد من قريب قرائبه ممن سمى على ارتكاب معصيته ومحادته ، ولغرض عصية.

وكذلك فعل إبراهيم نبي الله وخليله صلى الله عليه في تبرئه من أبيه ، حين بان له عداوته لله ربه وبارئه ، قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤]. وهذه صفة من صفات المؤمنين ، وعدهم الله بها مغفرته ودخول جنات النعيم ، قال الله سبحانه: ﴿ سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]. ثم أخبر تبارك وتعالى بعملهم الذي كانوا به للجنة مستحقين ، فقال في صفتهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ - والسراء: اليسرى ، والضراء: العسرى - وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ - وكظم الغيظ مما يحب الله عند جهل الجاهلين ، ثم قال: - وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] (١) ، ويحب العفو عن الناس ، ومن عفى فهو عند الله من المحسنين.

ثم قال سبحانه مرغبا في الاستغفار والتوبة للتائبين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥]. فافهموا - رحمكم الله - قوله

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... والعافين عن الناس والله عفو غفور ﴾ ، ولا يوجد بهذا اللفظ.

سبحانه فيمن فعل فاحشة أو فعلها فقد ظلم نفسه ، بما تعرّض من عقاب الله وعذابها عليه.

وأظلم الظالمين مَن ظلم نفسه بفعل الفواحش ، وتعرَّض لعقاب الله جل ثناؤه ، فأخبرهم سبحانه بالمخرج من ذلك ، وأنه استغفار مَن أتى فاحشة بلسانه ، مع التوبة إلى الله الكريم من عصيانه ، وذِكْرهم لله وهو ذكرهم بالاستغفار له فيما أتوا من فواحش العصيان ، عندما يذكرون رحمة الله ورأفته بالمذنب الظالم لنفسه ، بركوب الزائل من باطل شهوته.

ثم أخبر سبحانه أنه لا يغفر كبائر الذنوب [التي] تكثر عن أن يحصيها غيره إلا هو لا إله إلا هو ، ثم قال سبحانه ينهاهم عن الإقامة على الذنوب والإصرار ، ويرغبهم في التوبة والاستغفار ، قبل هجوم الموت ومصير المصرِّ المقيم على ذنوبه إلى عذاب النار.

[كظم الغيظ]

وأمر في غير موضع رسوله والمؤمنين بأن يكون عليه السلام ويكونوا بالحسنة للسيئة دافعين ، فقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٦].

وقال سبحانه مرغبا في قول الحسنى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣] ، وقال في دفع السيئة بالحسنة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤]. والولي هو: القريب الرحم المحب الشفيق ، ثم قال سبحانه: إن هذا الخلق الذي رضيه لعباده المؤمنين من دفع السيئة بالتي هي أحسن: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

[فصلت:٣٥]. يخبر سبحانه أنه لا يلقاها فيفعلها يعني سبحانه: هذه الخصلة من الحلم إلا كل ذي حظ عظيم في طلب رضوان الله بالصبر والكظم.

ولقد بلغني في الخبر المنقول الصحيح المعروف أن رجلا في أيام معاوية قال: « دخلت المدينة فرأيت رجلا جهرني – يريد أعجبني جماله وكماله – قال الشامي – وكان مبغضا لآل محمد أموي الهوى والرأي – قال: فقلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا الحسن بن علي. قال الشامي: فحسدت عليا أن يكون له ابن مثله. فقلت له: أنت ابن أبي طالب؟ فقال: إني ابنه. قال: فقلت له: فبك وبأبيك ، وبك وبأبيك يلعن ويشتم علي بن أبي طالب. قال الشامي: فاوم الحسن ، يعني: سكت فلا يجيبني بشيء. ثم قال: أحسبك عربيا؟! قال: قلت: نعم. فقال لي الحسن: وإن سألتنا أعطيناك ، وإن استرفدتنا رفدناك ، وإن استعنتنا أعناك. قال الشامي: فما رمت من موضعي حتى ما كان أحد أحب إلي منه ».

وكان كظم الحسن رحمة الله عليه لغيظه عن الشامي اتباعا منه لقول الله سبحانه:﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت:٣٤]. فتفضلُ الحسن صلوات الله عليه ودفعه بالتي هي أحسن عن الشامي الذي بينه وبينه العداوة عن عداوته إلى المودة له وإلى محبته ، فلم يرم الشامي من موضعه حتى ما كان أحد أحب إليه منه في الإنفاق.

[الإنفاق]

ومن عظيم ما يرضي الله عن المؤمنين ، أن يكونوا لما رزقهم من رزقه لإخوانهم مواسين ، وأن لا يكونوا بأموالهم أشحاء باخلين ، وقد ذكر الله في مواضع كثيرة وآيات عدة ، أن من صفات عباده المتقين أن يكونوا ما رزقهم منفقين ، فقال في سورة البقرة وهو يخبر عما في الإنفاق من المؤمنين ، مما

رزقناهم ما يكونون به عنده مرضيين ، وقرن الإنفاق من رزقه مع الإيمان به ، فقال سبحانه في صفات عباده المـــؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة:٣-٥].

وقال سبحانه في هذه السورة مكررا لما له من الرضى في بذل المال ، وما للمؤمنين إليه به من القربة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ - ثم قال سبحانه فيمن وصف فيه هذه الصفات من المـــؤمنين - أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝ ﴾ [البقرة:١٧٧]. فقرن الله سبحانه إيتاء المؤمنين المال وهو بذلهم له على حبه مع الإيمان به والإيمان باليوم الآخر وهـــو يوم القيامة ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، ثم قرن ذكر إيتاء المال بهذه الفرائض فقال:﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾. ثم ذكر ما ذكر بعد من صفات المـــؤمنين ، حتى بلغت الصفات هذه الآية المفروضة.

وقال في هذه السورة بعينها وهو يُرغِّب في الإنفاق عباده المـــؤمنين: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [البقرة:١٩٥].

فأخبر أن البخل بالإنفاق إلقاء بأيديهم إلى التهلكة ، والتهلكة هي الهلكة ، فافهموا رحمكم الله.

وقال سبحانه مكررا لما في الإنفاق من مرضاته: ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٥].

وقال في هذه السورة نفسها مكررا ومرددا لما في الإنفاق مما رزق المؤمنين لمن آمن به إليه من القربة إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤]. خبرا منه سبحانه عن أن مَن بخل أو أمسك عن الإنفاق مما رزقه الله فقد ظلم نفسه وكفر ، ومن فعل هذا فليس من أهل التقوى ولا البر.

وقال في هذه السورة مرددا ومكررا لما له في الإنفاق من الرضى والمحبة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٢].

وقال في هذه السورة مرددا لما في إنفاق المؤمن بالليل والنهار من الرضى والقربة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقال سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ - والتثبيت والله أعلم الإنفاق بالنية في القربة إلى الله - كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ - والوابل فهو المطر الغزير الشديد -

فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ.- والطل الندى بالليل ، فهو يقوم في زكاء الثمار ، مقام الوابل من الأمطار - وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ [البقرة:٢٦٥] ، ثم قال سبحانه مرغبا: ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وقال في سورة آل عمران وهو يخبر عباده بما في الإنفاق من أموالهم من تمام الإيمان: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٧]. فهذه صفة الله للمؤمنين الأتقياء الأبرار ، وصفهم سبحانه بالصبر والقنوت ، والقنوت فهو الدعاء لله من المؤمنين ، وهو قانت: خاشع وأتم ، ثم وصفهم بالسخاء والإنفاق لأموالهم ، وترك البخل لما في البخل من سخط ربهم ، ووصفهم بالاستغفار مع التوبة وهو تمام الاستغفار من ذنوبهم ، وقال سبحانه: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران:٩٢].

وقال سبحانه فيمن بخل بالإنفاق الذي هو تمام الإيمان: ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد:٣٨].

وقال سبحانه في الثناء على الأنصار ، وذكرهم بما فعلوا مما رضيه من عباده المؤمنين الأبرار ، ومواساتهم لإخوانهم من المهاجرين ، حين علموا أنهم إلى مواساتهم محتاجون: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ - يعني بالدار: المدينة - مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝﴾ [الحشر:٩-١٠].

ولقد ذكر في الخبر، وصح فيما جاء من الأثر أن الأنصار كانوا بلغوا من مواساة إخوانهم المهاجرين في أموالهم، وما لهم من المساكن والديار، أن كانوا يسكنونهم أفضل مساكنهم، فكان يكون للرجل من الأنصار في داره المنزلان والمسكنان، فيُنزل المهاجر في خير المنزلين من داره، وكانوا إذا جاءت ثمر ضياعهم وحوائطهم قسم الرجل من الأنصار حائطه الذي فيه ثمر نخله قسمين، وأطعم أخاه في الدين من المهاجرين خير النصفين، وأجودهما وأطيبهما تمرا، فأثنى الله بذلك في كتابه عليهم، وذكر فعلهم في هذا ورضاه ومحبته لذلك منهم، فقال: ﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾. يخبر سبحانه أنه قد كان يفعل ما يحب الله من أثرتهم لإخوانهم في الدين من المهاجرين من به خصاصة، والخصاصة: الفقر والحاجة من الأنصار الكرام المتكرمين.

فكونوا - أرشدكم الله - بهذا الخلق مستوصين، وبهذا أمر الله المؤمنين في كتابه الناطق المبين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝﴾ [البقرة:٢٦٧]. يقول تعالى: ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ يعني: من خير أموالكم وأزكاها وأحلّها، ولا تنفقوا مما تبغضون من حرامها وخبيثها، ولو

أُعطيتم ذلك لم تأخذوه من غيركم إلا أن تغمضوا فيه ، إلا أن تتكارهوا عليــه ، فافهموا ثم افهموا رحمكم الله.

ثم أخبر سبحانه أن الذي يمنعهم إن امتنعوا من مواساة إخوانهم ، وترك القليل الذي لا يجدون فقده ولا مسه من أموالهم ، أن الشيطان يخوفهم ويعدهم الفقر ، ويأمرهم بالفحشاء والسوء من البخل ، والله هو سبحانه يعدهم إذا أنفقوا مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (١).

والبخل فلا يرضه الله للمؤمنين ، ولا رضيه لهم رسول رب العالمين.

لقد بلغني وصح عندي ورواه أبي رضي الله عنه: « أن أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى المتقين من آله قالوا: يا رسول الله هل يكون المؤمن جبانا؟ فقــال صلى الله عليه: ربما كان. قالوا: يا رسول الله هل يكون المؤمن بخيلا؟ فقــال عليه السلام: لا ، لا يكون المؤمن بخيلا » (٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقوم من الأنصار يقال لهــم بنــو سلمة: « يا بني سلمة مَن سيدكم؟ قالوا: يا رسول الله سيدنا الجد بن قــيس

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

(٢) عن صفوان بن سليم قال: ((قيل: يا رسول الله أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم. قيــل: أيكــون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم. قيل: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا)). أخرجه ابن أبي الدنيا في مكــارم الأخلاق ج١/ص٥٤/ح١٤٧ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٩٠/ح١٧٩٥.

على بخل فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه: وأي داء أدواء من البخل ، وأي داء أدوى من البخل ، يردد هذا القول ثلاث مرات » (١).

وروي لنا عن بعض آل محمد صلى الله عليه عن أسلافه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه: « يا علي كن شجاعا فإن الله يحب الشجاع ، يا علي كن سخيا فإن الله يحب السخي ، يا علي كن غيورا فإن الله يحب الغيور » (٢).

والغيور – هداكم الله – الذي يغار على حرمته ومرته ، ويحجبها ويسد عليها لغيرته عليها ، خوفا من زلتها وعثرتها إذا خرجت من بيته ، فقد تلوت عليكم ما يكون من آي القرآن ، وأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق ، وأن لا يكونوا بما رزقهم الله أشحاء باخلين ، وبأن يكونوا لإخوانهم مواسين ، ولحاجتهم وفقرهم وبرهم وصلاتهم متعاهدين ، فكونوا بما أوصاكم الله به من هذا مستوصين ، فإني بما أوصيتكم به وذكرتكم من أمر الله لكم من الناصحين ،

---

(١) عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سيدكم يا بني سلمة؟ قلنا: جد بن قيس على أنا نبخله. قال: وأي داء أدوى من البخل بل سيدكم عمرو بن الجموح ، وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية وكان يو لم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج)).

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص١١١/ح٢٩٦ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٢٤٢/ح٤٩٦٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٣٥/ح١٢٠٣ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٩٩/ح٣١٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٧٤/ح٣٦٥٠.

(٢) ((يا علي كن سخيا ، فإن الله تعالى يحب السخي ، وكن شجاعا فإن الله يحب الشجاع ، وكن غيورا فإن الله يحب الغيور ، وإن امرؤ سألك حاجة فاقضها ، فإن لم يكن لها أهلا كنت أنت لها أهلا)). رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٤٣٤٨٤.

فإن الله يخلف لكم ما أنفقتم وهو خير الرزاقين ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩].

فهذا باب كبير من تمام الإيمان ، إن حافظتم عليه رشدتم ، وإن بخلتم على أنفسكم بالتقرب إلى الله به غويتم وهلكتم.

[الحسد]

وأوصيكم بطرح الحسد من بعضكم لبعض ، فكونوا [له] مطرحين ولا تستعملوه بينكم ، فيكون الله به عليكم من الساخطين ، وكيف يكون المؤمن لأخيه حاسدا ، فيكون عند المحاسدة له مبغضا وعليه حاقدا؟! وقد أمره الله لأخيه المؤمن بالمحبة والمودة.

والحسد فقد أمر الله نبيه والمؤمنين بالتعوذ منه ، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق:١-٥].

والحسد - أرشدكم [الله] - أول ما عصي الله به في أرضه ، لأن إبليس اللعين كان الحسد هو الذي حمله حين حسد آدم على عصيان [الله] ، ثم أمر الله الملائكة وأمره بالسجود لآدم ، والذي أمر الله به إنما هو السجود من أجل آدم ، عندما نزل فيه من عجيب صنع الله الحكيم ، إذ خلقه من أحقر الأشياء الطين المسنون والحمأ ، فعاد بشرا حيا ناطقا ، بعد أن كان لا ينطق ، سميعا بصيرا بعد أن كان لا يسمع ولا يبصر ، متحركا قائما قاعدا بعد أن كان جمادا خامدا ، عاقلا بعد أن كان محتقرا خاملا ، قد شارك ملائكته في العقل ، وإن كان لهم عليه في جميع الأمور الفضل.

قد سوَّى الله خلقه ، وحسَّن صورته ، على ما في أرضه سواه ، فهو لحقارة ما خُلق منه يعجب له ملائكة الله وكل من رآه ، فأمر الله الملائكة بالسجود له عند كمال عقله ، وإنما سجودهم له سجود منهم لله ربه ، فتكبر إبليس اللعين وعتا حسدا منه لآدم ، وبغيا له لم يسجد ، وعصى الله سبحانه ، فشقي و لم يرشد ، وقال: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:٦١] ، ثم قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص:٧٦]. وصار بالمعصية لله لحسد آدم من الهالكين ، المعذبين عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، حين خالف أمر الله وكان من العاصين.

فكل من كان حسودا فهو سالك سبيل إبليس في الحسد ، وهو عند الله هالك إذا حسد المؤمنين.

وانتهوا – أرشدكم الله – عن الحسد ثم انتهوا ، وتنبهوا مطَّرحه بينكم ثم تنبهوا ، فإن النفاسة [والحسد] لا يصلحان ولا يجوزان إلا في التنافس للرغبة في الطاعة ، والأعمال الصالحة ، فالتنافس على ثواب الله للمتقين في نعيم الجنة ، قال الله تبارك وتعالى وهو يذكر نعيم الأبرار في الجنة ، وما يكرم به من ثوابه الأبرار: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ ﴾ [المطففين:٢٢-٢٦]. يعني سبحانه: في الأعمال الصالحة التي توصل إلى مثل هذا النعيم ، ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ ﴾ ، والتنافس هاهنا التسابق والتحاسد على الأعمال الصالحة التي ينال بها مثل هذا الثواب الأبرار المتقون ، لأن هذا تحاسد وتنافس على طاعة الله ، ليس فيه تباغض بين المؤمنين ولا تحاقد ، ولا تغادرٌ بحسد كحسد أهل الدنيا ،

بالتباغض بينهم والأذى ، وإنما هو تنافس في الازدياد في طاعة الله ، لينالوا من ثوابه ما نال الأبرار أهل التقوى.

[الغلو]

وأوصيكم - يرحمكم الله - بأن تجتنبوا الغلو في الدين ، فذلك أمر الله في كتابه المبين ، فقد نهى الله عن الغلو في الدين ، مَن مضى من الأولين ، ونهى عنه جميع المؤمنين.

وقد ألقى إليكم في دينكم ما وسَّع الله وسهَّل عليكم ، وأعلمكم أن ذلك أشباها بها يسهل فيه الرخص ، فذهب كثير منكم إلى ما لا يجوز من الترك والتواني والإهمال ، ولم يقل لكم إن الفضل فيه الأخذ بالرخص في الأعمال ، بل نهاكم - رحمه الله - عن التهاون بالأمر من دينكم بإيثار الفضل في تعجيله ، وترك التفريط والاستخفاف بترك المسابقة إلى تقديمه وتبدينه قبل كل شغل على غيره ، وذلك في الدين أشبه بالعبادة والورع ، وأبعد من لزوم الرخص والشنع.

[الصلاة]

وفي ذلك ما ألقى إليكم عند العلة العارضة من الشغل والخوف الشديد ، فيؤخر الصلاة عن أول الوقت إلى آخره بهذا السبب ، فبلغني أن كثيرا ممن ينتحل مذهبكم قد صار إلى الإفراط بالتوسعة على نفسه لتأخيرها حتى يخرج أو يكاد جميع وقتها.

وأُخبرت أن بعض مَن عندكم ربما أخر صلاة الظهر والعصر عن غير علة ولا مرض ، ولا سبب عرض ، حتى يغشاه الليل ، وهذا مما لا يحل ولا يجوز أن يؤخر المأمور بالصلاة المفروضة عليه إلى آخر ساعات النهار ، متشاغلا

بالحديث والضحك والإقبال والإدبار ، حتى إذا اصفرت الشمس ودنت للغروب ، قام يصلي ، وهذا - رحمكم الله وأرشدكم - استخفاف بالدين ، لا يجوز إلا عند الرخصة للمضطرين ، وفي هذا غاية الشنعة في التهاون بما لا يجوز التهاون به من مفروض الصلاة على المصلين ، وإنه ليفهم مَن عقل أن من إجلال الأمر بالأمر راضونه ، والعمل به تعجيل ما يأمر به في أول أوقاته ، وإن ذلك لمن إجلال الأمر وإطاعته ، فمن تلهى عن ذلك وأخره عن غير علة ولا عذر ، فلم يجل و لم يوقر الأمر ، فلا تؤخروا - رحمكم الله - الصلوات إلا عن شغل عارض ، أو علة مانعة أو غالب مرض.

ومن أخر صلاة المغرب والعشاء الآخرة وتلهى عنهما ، فحكم اليوم على نفسه ، وترك أداء فريضة الله ربه في صلاته ، فقد عطل صلاته ، وخرج من الدين ، لأنه لا يدري لعله لا يستيقظ من نومه حتى يطلع الفجر ، فيكون قد عطل صلاة المغرب والعشاء ، وهما من مؤكد فرض الله ربه ، فيكون حينئذ قد كفر وعطل صلاته ، حتى خرج الوقت آخره وأوله ، فكان كالمرتد عن دينه ، وخرج من الإسلام بأيقن يقينه ، عند نفسه وعند غيره.

وإياكم - أرشدكم الله - ثم إياكم وتأخير الصلاة عن غير علة من العلل المانعات ، إلى آخر ما لها من الأوقات ، فاحذروا هذا ، فإنه باب من المعاصي والضلالات ، عصمنا الله وإياكم من الضلالة بعد الهدى ، وصرف عنا وعنكم التمادي في الغلو والغلط والإسراف والردى.

وأخرى بلغنا عن كثير منكم أنكم تفعلون فيها أو بعضها ما لا يجوز ولا يحل لكم ، وهو شرب ما يسكر من الطلاء المطبوخ ، وكلما أسكر كثيره فقليله حرام ، لأنه خمر ، وقد حرم الله الخمر قليلها وكثيرها ، حتى القطرة منها ،

لقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « ما أسكر كثيره فقليله حرام »[(١)]. ولا اختلاف في هذا بين أحد من أهل الإسلام، وإنما الحلال من الطلاء العصير المطبوخ ما طبخ منه حتى يبلغ به الطبخ الغاية التي لا يسكر معها كثيره.

والكروم في ذلك فيما بلغني يختلف، وأما ما كان منها من عصير العنب إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى الثلث، فإن الثلث الباقي يسكر فحرام شرب القطرة الواحدة منه فافهموا.

واعلموا - رحمكم الله وهداكم - أن كل ما كان يسكر كثيره فالقطرة حرام منه، وقليله خمر حرام، وقد أخبرني غير واحد من أهل بلدكم أن الكروم يختلف، فمن الكروم ما يكون قوي العنب يطبخ عصيره حتى يذهب ثلثاه ثم يسكر الثلث الباقي منه، وهذا حرام خمر، فمن شرب القطرة منه فكافر إذا كان كثيره يسكر، فلا يحل أن يشرب من هذا قطرة.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ٨/ص٣٠١/ح٥٦٠٧، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٢٠٤/ح٥٣٨٣، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٣/ح١٨٦٥، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١١٢٥/ح٣٣٩٢، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٨/ح٣٦٨١، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩١/ح٥٦٤٨، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٤٦٧/ح٥٧٤٨، والطبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٢٠٥/ح٤١٤٩، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٦/ح٥١١٧، والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٥٥/ح٤٨، وابن راهويه في مسنده ج٢/ص٣٩٩/ح٩٤٩، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٦/ح١٧١٦٧، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٩/ح٨٦٠، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٧٢/ح١٦١٦.

فالله الله في أنفسكم لا تهلكوا في دينكم ، وعند ربكم في آخرتكم ، لا تشربوا من العصير والمطبوخ إلا ما لا يسكر ، ولو شرب منه الشارب عشر قِربٍ ، أو مائة رطل لم يسكر ، فأما ما أسكر كثيره فالقطرة منه حرام.

وأنا أكتب إليكم في كل سنة منذ سنين كثيرة وأعوام ، أنهاكم عن شرب هذا العصير الذي يسكر منه الكثير ، وأُعلمكم أنه لا يحل منه شرب قطرة واحدة ، فإنه من شرب منه قطرة فقد شرب خمرا ، وكان لشربه في دين الله كافرا ، فهو حرام كلحم الخنزير فاعلموا ذلك ، وكل من كان منكم يشربه فليتب إلى الله من شربه وليتركه ، واقصروا عن التشنيع والغلو في الدين ، لتكونوا عند الله من التائبين الراشدين ، وأما ما كان غير قوي العنب من الكروم والعصير ، الذي إذا طبخ بالنار حتى يذهب ثلثه ويبقى الثلث الباقي منه لا يسكر منه الكثير ، فحلال شربه ، إلا إن يتغير فيعود مسكرا ، فلا يجوز حينئذ ولا يحل شربه.

في الذبائح

وأما الذبائح - يرحمكم الله - فأشرح لكم أمرها ، حتى تفهموا ما كان يراه أبي رضي الله عنه فيها ، ويختاره رحمة الله عليه لنفسه ، ويراه الأفضل في الاحتياط لدينه ، والذي كان يختاره رحمة الله عليه في الذبائح فتركُ الأكل لذبائح المشبهين ، فكان لا يأكل إلا ذبيحة الذين هم بالتوحيد معروفون ، وكان مع ذلك يقول فيمن لا يعرف ممن ينتحل الإسلام بالتشبيه لله سبحانه بخلقه المصورين ، وكان أمره مستورا خفيا عن الموحدين ، فلم يعرفوه بتوحيد ولم يعرفوه بتشبيه ، ففي أكل ذبيحة المجهول رخصة ، وليست ذبيحة المجهول كذبيحة المعالن بالتشبيه المعاند المعروف ، وكان يرى ويختار لنفسه ما يعلم أنه أفضل في دينه ، فلا يأكل إلا من ذبائح الموحدين المعروفين بالتوحيد ، وكان

يقول لعياله وولده: أنا أختار لنفسي ألا آكل إلا ذبيحة المعروف بالتوحيد ، وأنا لا أُحرم عليكم أكل ذبيحة المجهول الذي[1] لا تدرون أموحداً أو مشبها ، فمن عرفتموه بالتشبيه وكان عندكم مجهولا ، فلا أقول لكم: إن أكلتم ذبيحته أكلتم حراماً.

[الأذان وصلاة الجماعة]

وأما الأذان فكان رحمة الله عليه يراه واجبا فرضا في مساجد من يصلي مع الموحدين في مساجدهم وجماعتهم ، وكان يرى الجماعة للموحدين الموافقين في الدين ، والصلاة معهم أفضل من صلاة المنفردين.
وكان يرى أذان المصلي المنفرد حسنا نافلة له ، يكون بها بالأذان من المنفرد فضلا أفضل من صلاة المنفرد بغير أذان ، لأن الأذان سنة من سنن الإسلام ، استعماله فضيلة للخاصة والعوام ، وبجماعة الموحدين ، وللذين يصلون من أهل التوحيد منفردين ، لأنه شهادة صادقة لله بوحدانيته ، وأن لا إله غيره ، وشهادة بالحق لنبي الله برسالته ، ودعاء إلى ذكر الله وطاعته ، وإلى الصلاة لله واتباع مرضاته.

[بناء المساجد]

وبناء المساجد مساجد أهل التوحيد التي يؤمهم فيها من إخوانهم الموافقون في الدين ، ففي بناء هذه المساجد من الموحدين لأنفسهم أجر كبير وثواب عظيم ، لمن صلى فيها مع المؤمن التقي الموحد لله الذي لا يشبهه سبحانه بالمخلوقين المصوَّرين من خلقه ، وصلى في جماعة من إخوانه مع من يؤمه ممن يقول

(١) في المخطوط: الذين.

بالتوحيد لله من إخوانه ، وأهل موافقته في دينه ومقالته ، فصلاته أفضل أضعافا من صلاة المنفرد وحده.

وأما إذا كان إمام المسجد موحدا لم يضره إذا كان المتقدم الذي يؤم أن يصلي خلفه من كان مشبها ، كما لا يضره أن يجلس المشبه معه قاعدا أو يلقاه في طريق ماشيا ، إذا كان من تشبيهه وتوليه متبريا ، فافهموا أرشدكم الله ووفقكم.

وكان - رحمة الله عليه - يأمر بالبناء للمساجد ، والصلاة فيها إذا كان من يؤم فيها موافقا في الدين ، ولم يكن من الضالين المشبهين ، وكان يرى أن إمام مسجد الموحدين لا يضره ولا من يصلي معه من أهل التوحيد أن يصلي معهم من خلفهم من المشبهين ، ولا يجوز أن يؤمَّ المشبهةُ الموحدين ، فتفهموا ، فأنا الآن راجع إلى ما أنا ذاكره مما أراده مما أراه على المؤمن في دينه واجبا ، فقد ذكرت الذنوب التي ينبغي أن يكون المؤمن إلى الله منها تائبا.

[أحكام النساء]

ويجب على المؤمنين في نسائهم أُمور قد أمر الله بها أمرا.

منها ما أمر الله به نبيه صلى الله عليه أن يأمر بها أزواجه وبناته ونساء المؤمنين ، من إدنا جلابيبهن عليهن للاستتار ، وإخفاء زينتهن عمن في قلبه مرض من السفهاء والأشرار ، قال الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٩]. والجلابيب: المقانع التي يسترن بها وجوههن وشعورهن ، يقول الله: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب:٥٩] ، يعني تبارك وتعالى: ذلك أدنى أحرى وأشبه بأن يعرفهن السفهاء والأشرار ، ويعلمون بما يصرن إليه من الخفاوة

والاستتار ، فيعلمون لما يرون في ذلك من حالهن أنهن لا يردن التبرج ولا الزينة ، ولا إطماع أهل السفه والفجور في أنفسهن ، فلا يؤذيهن الفجار بكلام في فحش ، ولا يتعرض لهن بقول رديء محرم موحش.

في حجبة النساء

وينبغي للمؤمن أن يحجب امرأته ونساءه عن الإقبال والإدبار والخروج والتردد في الأسواق ، ومن دخول بيوت السفهاء الفساق ، فإن كان بهن فاقة وحاجة إلى الخروج لم يخرجن إلا بإذن الولي ، والخروج مستترات بثيابهن ، مستخفيات بما عليهن من جلابيبهن ، ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] ، فإنهن إن ضربن بأرجلهن وعليهن الأجراس في أرجلهن صوّتت الأجراس ، فكان ذلك منهن زينة وتعرضا يُطمع فيهن الفجار السفهاء من الناس ، وينبغي للمؤمنات أن يكن لبيوتهن وحجابهن لازمات ، ولا يُدخلن عليهن أهل الريب ، ولا يطرحن ما يسترن به رؤوسهن وشعورهن ، ولا يبدين وجوههن ولا زينتهن ، إلا لمن قال الله تبارك وتعالى وهو يأمر المؤمنات بالاستتار والاحتجاب ، إلا عمن سمى من قرابتهن ومحارمهن ، ممن ذكر الله في منزل الكتاب ، قال الله سبحانه: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ - يريد بالجناح: لا إثم عليهن - فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٥]. فهؤلاء الذي ذكر الله سبحانه المحرَّمون عليهن ، وأذن لهن بإدخال هؤلاء المسمَّين إليهن ، ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ ، فهؤلاء الذين أذن الله لهم فيهم أن يدخلوا عليهن.

وقال: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ [النور:٣١] هم الذي: لا يشتهون ولا يريدون النساء، قال الله تبارك وتعالى وهو يدل المؤمنات على ما هو أفضل لهن في دينهن، في أدنى استتارهن على رؤوسهن وأشعارهن، ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٌ لَّهُنَّۗ﴾ [النور:٦٠]، يعني بالاستعفاف: الاستتار ﴿خَيۡرٌ لَّهُنَّۗ﴾ [النور:٦٠] يعني: أفضل في دينهن، وأقرب من رضاء ربهن.

وينبغي لأزواج المؤمنات من الرجال أن يفتوهن ويحجبوهن عن الإقبال والإدبار، وأن يكون المؤمن يأنف ويتنغص ويغار على زوجته وحُرَمه من بناته وأخواته وقرائبه، فإن الله يحب الغيرة من عبده المؤمن، والغيرة مما يجب على التقي المسلم، وينبغي للمؤمن ألا يهون عليه ولا يجوز لنفسه تبرج ابنته ولا زوجته ولا أخته ولا حرمته، فتتشبه بالكفار والمشركين والمنافقين الملاعين، الذين لا يغارون على حُرَمهم، ولا يبالون في ترك حجاب الحُرَم، وما سخط الله في قلة الغيرة من حرمهم، وإن هذا الباب كبير من أبواب الدين، إن غفلوا عنه كانوا عند الله من الآثمين، غير متأدبين بآداب الله التي أدب بها المؤمنين.

وينبغي للمؤمن أن يحذر خلوة المملوك من الرجال والأُجَرَاء الذين يستأجرهم لما يستعين به عليه من الأشغال، وليحذر خلوة أحد من هؤلاء بحرمته، فليس يأمن فساد الأجير والمملوك بحرمته، لما بُني عليه الذكر من منازعته إلى الأنثى، وما لا يُؤمن منه من إقدامه وعربه، فقد صح عندي أن رسول الله صلى الله

عليه وعلى آله « نهى أن يخلو الرجل مع امرأة وقال: لا يخلو رجل مع امرأة فإن ثالثهما شيطان »(١).

[مواساة الفقراء]

ويجب على المؤمن بل ذلك من تمام إيمانه أن لا يغفل عن مواساة أهل الفقر والعسر من إخوانه الموافقين في دينه ، وعن من يوافقه في الدين من جيرانه ، وأن يرفدهم بتعاهده وفضول ماله وغلته ، وأن يدفع إليهم بزكاة ماشيته ، وعشر ما يخرج الله له من زرعه وثمار أرضه ، فإن ذلك مما ألزمه الله وفرضه عليه من فرضه ، مَن تركه أو غفل عنه ترك فرضا واجبا ، وكان الله بتركه له ساخطاً ، فقد بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وكان أبي رضي الله عنه يرويه: أن رسول الله صلى الله عليه قال: « ما آمن بالله. يردد هذا القول ثلاث مرات. فقال له بعض من حَضَرَ قولَه هذا من أصحابه مَن يا رسول

(١) عن جابر بن سمرة قال: خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال: ((أكرموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب ، حتى يحلف الرجل ولم يستحلف ، ويشهد ولم يستشهد ، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان ، ومن سرته حسنته وساءته سيأته فهو مؤمن)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٤٠٠/ح٥٥٨٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٦/ح١٧٧ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٧/ح٣١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٨٧/ح٩٢١٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٥٠/ح٤٠٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص١٣٣/ح١٤٣ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٨/ح٢٣،والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٠/ح١١٣٤.

الله؟! قال: من بات شبعانا وجاره طاويا - يعني جائعا - إلى جنبه وهو يشعر ».[1]

باب الزكاة

واعلموا - هداكم الله وأرشدكم ، وصرف عنا وعنكم شرور أنفسنا ، وسددنا وسددكم - أن من فرض الله الواجب عليكم الذي إن عصيتم الله في إخراجه كنتم عند الله عصاة مسخوطين ، وكنتم عنده سبحانه غير مؤمنين ، وهو إخراج زكاة ما ملّككم الله من أموالكم ومن مواشيكم ، وإخراج عشورها التي أخرج لكم من ثمار أرضكم ، الله الله في إخراج ما فرض الله عليكم من عشور غلاتكم وزكاتكم ، ولا تدفعوا ذلك إلا إلى يد الفقير والمسكين من إخوانكم ، ولا تدفعوه إلى أحد يخدعكم عنه ويأكله هو وولده وعياله ، كما يفعل الرجل الخداع الذي قد تعرفونه ، ولا يدفع رجل زكاته وعُشره إلى أحد يخدعه عنه ، ولكن من يد صاحب العشر والزكاة والصدقة إلى يد محتاج فقير ، أو من يد من هو موثوق به في دينه ، فإن أنتم لم تفعلوا - رحمكم الله - في ترك إخراج عشوركم وزكاتكم ، كنتم عند الله خونة كافرين ، و لم تكونوا عنده سبحانه من المؤمنين.

---

(١) عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله أو كما قال: ((ليس المؤمن الذي يبيت شبعان وجاره جائع)).

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص٥٢/ح١١٢ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص١٠٧/ح٣٤٧ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٥/ح٢١٦٦ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ص٢٨/ح٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢٥٩/ح٧٥١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٣/ح١٩٤٥٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٥/ص٩٣/ح٢٦٩٩ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣١/ح٦٩٤.

واعلموا وافهموا أن العشر والزكوات لا تحل لأحد من أهل بيت محمــد ولا ولد فاطمة ولا آل علي عليهم السلام ، وأنها عليهم محرمة لا يجهله ذلك أحد [١] ، من أهل الإسلام كلهم ، ولا يجهله الشيعة ، فمن برّ أحدا من آل محمد عليه السلام بدينار أو درهم أو ثوب أو أقل أو أكثر ، أو بَرَّهم من كفارة يمين ، أو من زكاة ، أو من عشر ، أو صدقة ، أو صرف إلى بــرهم شــيئا ، أو وصية في حجة أوصى بها مريض من حجة مات ببلد ، وقد كان وجب عليه الحج من بلده ، فتغافل عن فريضة الله وعطلها حتى هجم عليه موته وأجله ، وقد فرط في حج بيت ربه ، وأوصى بحجة تُحج عنه بالنفقة التي أوصى بها ، فالواجب عليه ، وعلى من صارت وصيته إليه ، أن يحج بتلك الحجة عنه من البلد الذي مات فيه ، وقد قصَّر من الحج فيما أوجب الله عليه ، ولا يجــوز لأحد أن يجوّز للوصي وقد مات الميت الذي قصر في حجة الإسلام بطبرستان ، فيقول للوصي الجاهل القليل الورع العمي: اصرف بعــض هــذه الحجــة الموصى بها أن يحج الحاج عن الميت من طبرستان ، ويأمر الوصي بجهله وقلــة ورعه في دينه أن يدفع بعض هذه النفقة ليُبر به أحدا من آل محمــد علــيهم السلام ، ويأخذ بعض النفقة فيحج بها من الكوفة أو المدينة مدينة الرســول صلى الله عليه وعلى أهل بيته ، ولا يحل [له] أن يجعل شيئا من هذه الحجــة التي أوصى بها الميت أن يحج بها عنه من بلده الذي مات فيه ، فجعل الحجــة من الكوفة أو المدينة ، وهذا حرام ممن أشار به على الوصي ولا يحل ما نقص من هذه النفقة في الحج عن الميت من بلده الذي مات فيه ، فيُجعل بــرا لآل محمد عليهم السلام ، لأن هذا عليه حرام غير حلال ، مِن خلط هذا النقصان

(١) في المخطوط: لا يجهل أحد ذلك. وما أثبت اجتهاد.

الذي نقص من نفقة الميت التي أوصى بها في الحج عنه من بلده ، والموضع الذي قبض فيه ، عن أداء فرض الله عليه حتى هجم عليه موته.

فمن نقص هذه النفقة وصيَّر منها شيئا في بر آل محمد وولد فاطمة عليهم السلام ، فقد فعل ما حرم الله عليه ذو الجلال والإكرام ، وإهداء من هذه النفقة التي خان الله فيها من ظنه ووسع هذا من لا ورع له ولا دين ، ولا معرفة بالله ولا يقين ، وحرام على جميع آل محمد عليهم السلام الغني منهم والفقير أن يقبل من هذا درهما واحدا كبر أو صغر ، ولا حبة من فضة ولا بقيراط ، ومن فعل هذا من أحد من آل محمد فعل ما لا يحل له ، لأن هذا محرم عليهم كتحريم لحم الخنزير والدم والميتة ، لأن النفقة التي أوصى بها الميت ليحج بها لا يحل أن يُخان الله فيها ، فتجعل حجة مدنية ولا كوفية.

فالله الله احذروا عليكم قول جاهل عَمِيٍّ يُجرِّيكم على خيانة هذه النفقة ، فيُبعِّضها ويجعلها نفقة لمن يحج من الكوفة أو المدينة فتهلكوا ، واسألوا أهل بيت نبيكم فيما اشتبه عليكم من أمر دينكم ، وأن لا يقبل بعضكم قول بعض في هذا ومثله ، ولكن ليرجع وليسأل فيما اشتبه عليه من هذا ومثله مَن جعلهم الله معدنه وموضعه من أهل الذكر ، يقول عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [النحل:٤٣ ، الأنبياء:٧].

فافهموا – يرحمكم الله – هذا الموضع ثم افهموا ، فإنكم وجميع من له دين وورع ويقين ممن يتشيع ، فلا ينبغي أن يسأل بعضكم بعضا ، وإنما ينبغي أن تسألوا من يعلم من آل نبيكم ، ومن هو عالم منهم بفهم ما يحل وما يحرم ، وما جعله الله موئلا ، ولا يتخذ بعضكم بعضا أربابا من دون الله ، والله بصير بالعباد.

هذا قولي وبالله توفيقي ، وعليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل ، وصلى الله علـــى محمـــد خـــاتم النبـــيين ، وعلـــى أهـــل بيتـــه الطيـــبين وســـلم.

كتاب

الأصول التسعة